بَرَاءَةُ ٱلإِسْلَامِ

من العلمانية والديمقراطية

تَأْلِيفُ

نَاصِرِ ٱلدِّينِ بْنِ عَبْدِ ٱلرَّحْمَنِ ٱلنُّعَيْمِي

مَكْتَبَةُ أَنْوَارِ ٱلتَّوْحِيدِ

ٱلطَّبۡعَةُ ٱلۡأُولَىٰ

مُحَرَّمٌ ١٤٣٥هـ

مكتبة أنوار التوحيد

www.alanwor.com

بَرَاءَةُ ٱلإِسْلَامِ

من العلمانية والديمقراطية

تَأْلِيفُ

نَاصِرِ ٱلدِّينِ بْنِ عَبْدِ ٱلرَّحْمَنِ ٱلنُّعَيْمِي

مَكْتَبَةُ أَنْوَارِ التَّوْحِيدِ

بسم الله الرحمن الرحيم

وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين

سُورَةُ ٱلْأَنْعَامِ ٱلْآيَةُ خَمْسٌ وَخَمْسُونَ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليمًا كثيرًا.

أمّا بعد:

إن المتأمل في واقع الناس اليوم وبالذات حال هذه الأمة التي كانت يومًا من الأيام تَدِين دين الحق، مستسلمةً لله وحده عقيدةً وقولًا وعملًا، تتّبع منهج الله في حياتها، وتحتكم إلى شريعته وحده، تُحِلُّ ما أحل الله وتحرِّم ما حرَّمه، ولا تعترف بشرعٍ غير شرعه، ولا مرجعية تستمد منها الأحكام والقوانين غير كتاب الله وسنة نبيه، يوم كانت تدين بالتوحيد، ولا تشرك بالله شيئًا، وتدعو إلى الله وحده، وتحمل راية الإسلام ولا تعرف راية غيرها، وتجاهد في سبيل الله من وقف في طريق الدعوة إليه، وصدَّ الناس عن سبيله؛ ليكون الدين كلُّه لله، ولا يبقى على وجه الأرض سلطانٌ غير سلطان شريعة الله وحكمه، هدفُها إخراج الناس جميعًا من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سَعة الدنيا والآخرة، وقد عاشت بالفعل زمنًا نتمنى اليوم أن نعيش لحظات منه خصوصًا أيام الرعيل[1] الأول، عاشت بالإسلام وللإسلام حياةً طيبةً، كانت حقًّا هي أسمى ما يطلُبه العاقل في هذه الدنيا، عاشت زمنًا لا تدين بغير الإسلام، ولا يحكمها غير الإسلام، عاشت تفتخر بأنها مسلمة لخالقها ومالكها عقيدةً وخُلُقًا وسلوكًا وواقعًا حيًّا، لا تعبد غيره، ولا تتخذُ من دونه أربابًا كما تفعل الأمم الأخرى.

---

(١) الرعيل: الجماعة القليلة من الرجال، أو الخيل التي تتقدم غيرها، ويقال فلانٌ من الرعيل الأول: أي من السابقين من الجماعة الأولى أو من الفوج الأول، والمقصود بالرعيل الأول: الصحابة والتابعون وسلف هذه الأمة وأئمتها.

عاشت هذه الأمة تفتخر بأنها حرة من كل قيود العبودية الذليلة لغير الله التي تعاني منها الأمم المشركة، وأنها لا تعبد بشرًا ولا حجرًا، ولكن تعبد الله الواحد القهار، الحاكم والمحكوم، والأمير والمأمور، كلهم سواءٌ تحت شريعة الله، شريعة العدل والخير والهدى والنور، دينها الإسلام عقيدةً وشريعةً ونظامًا وخُلقًا ومنهجًا، دستورها كتاب ربها وسنة نبيها ﷺ، كانت تفتخر بذلك على جميع الأمم، وحُقَّ لها أن تفتخر، فإن عندها ما تفتخر به مما تفتقر إليه الأمم الأخرى، هذا حالها بالأمس.

فما حالها اليوم؟ أين هي من أمسِها؟ أين هي من دينها؟ أين هي من كتاب ربها وسنة نبيِّه؟

من تأمل حالها اليوم يرى اختلافًا كبيرًا بين ماضيها وحاضرها، وما ذلك إلا لبعدها عن دين الله، فلا أحد يزعم أن حالها اليوم مع الإسلام كحالها أيام القرون الأولى، كلُّنا يرى انحرافًا وابتعادًا واضحًا عن الدين الحقِّ في جميع جوانب الحياة الخاصة والعامة، لكن القليل والقليل جدًا من أدرك مدى بُعد الناس عن دين الله، وحجم مخالفتهم له، وحقيقة انحرافهم عنه، ولا شك أن معرفة حجم الخلاف وحقيقة الانحراف ضروريٌّ لمعالجته والرجوع بالأمة إلى دينها الأول، وإحيائه فيها من جديد، فليست كل المخالفات التي يقع فيها الناس في مرتبة واحدة، فمن المخالفات ما يكون في نِطاق فروع الشريعة ولا تتعدَّى إلى هدم ونقض أصل الإسلام، كشرب الخمر، أو الزنا، أو السرقة، أو أكل الربا، أو الغش في البيع، أو الكذب في الحديث، أو غيرها من المخالفات العملية الفرعية، التي قد يقع فيها المسلم ولا تُخرجه من دائرة الإسلام لبقاء أصله ثابتًا.

وهناك نوع آخر من المخالفات ليست في نفس المرتبة الأولى، أي ليست في نطاق فروع الشريعة، وإنما هي مخالفات في أصل الإسلام نفسه الذي لا يصح إلا به والذي يميِّزه عن الكفر، هذه المخالفات لا يصح أبدًا أن نساوي بينها وبين المخالفات الفرعية العملية، التي تُعَدُّ ذنوبًا ومعاصي يقترفها المسلم، ولا يَكفُر إلا باستحلالها، فالمخالفة فيما لا يكون الإنسان مسلمًا إلا به (وهو الإيمان بالشهادتين اعتقادًا وقولًا وعملًا) كفرٌ يناقض الإسلام من أساسه،

فلا يمكن بأي حالٍ أن يجتمع الإسلام وهذه المخالفات في شخصٍ واحدٍ؛ لأنهما نقيضان، فوجود أحدهما يعني غياب الآخر، ولْنأخذ مثالًا لهذه المخالفات: اتخاذ شريك مع الله فيما يختص به سبحانه من خصائص الربوبية أو الألوهية، هذا لا شك أنه يخالف الإسلام، فأعظم قواعد الإسلام الكلِّية المحكمة الجامعة نفي الشريك عن الله في جميع خصائص الربوبية والألوهية، فهل يصح أن نجعل هذه المخالفة كسائر المعاصي التي يقترفها المسلم، فتُضعِف إيمانه ولا تخرجه من الإسلام؟! هل يصح أن نجعل عبادة غير الله بالدعاء، أو الذبح، أو قبول التشريع من غير الله كمعصية الموحد بشربه الخمر، أو وقوعه في الزنا؟!

فمن عرف حقيقة الإسلام وما يناقضه، وعرف متى يَثْبُت وصف الإسلام للشخص ومتى ينتفي عنه، وعرف ما هو الحد الفارق بين الإسلام والكفر، سوف يضع هذه المخالفة في مكانها، ويعتبرها خروجًا عن الإسلام؛ لأنها تُناقض الإيمان بالشهادتين أصل الإسلام، وبالتالي لا يبقى وصف الإسلام معها.

ولكن من الناس من يحسب أن اتخاذ شريك مع الله في العبادة، أو في الحكم، أو في التشريع مخالفةً لا تناقض الإسلام، ولا يعُدُّها كفرًا بعقيدة التوحيد، ويتصوّر أنه يمكن أن يجتمع الإيمان بلا إله إلا الله مع مثل هذه المخالفة؛ ذلك لأنه لا يملك تصوُّرًا صحيحًا لمفهوم الإسلام، ولا يعرف ما يُثبت الإسلام وما ينفيه، وما يفرق بينه وبين الكفر.

ومنهم من لا يعُدُّها مخالفة ولا معصية، ويظن أنها من الدين الذي شرعه الله، لجهله بحقيقة الإسلام، كحال عباد القبور الذين يحسبون أن دعاءهم الأولياء والصالحين واستغاثتهم بهم، والتقرب إليهم بالذبح والطواف والاعتكاف عند قبورهم من القُرُبَاتِ[1] لرب العالمين، تمامًا كما أخبر الله عن حال الجاهلية الأولى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ

(١) القُرُبَاتُ: هي ما يُتَقَرَّبُ به إلى الله من أعمال البِرِّ والطاعة المشروعة.

لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ [الزمر: ٣]. هؤلاء الذين نعتهم الله في هذه الآية كانوا يحسبون أنفسهم على ملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولم يكونوا يشعرون بحجم مخالفتهم لها، بل كانوا يعتقدون أن ما هم عليه من الشرك لا يخالف ملة إبراهيم؛ وذلك لجهلهم بحقيقة التوحيد الذي هو أساس ملة إبراهيم، والمميِّزُ لها عن غيرها من المِلل الباطلة.

فالجهل بحقيقة الإسلام يجعل الميزان الذي يزِن به الشخص مخالفاته ومخالفات غيره غير مضبوط بضابط صحيح؛ وبالتالي ستكون نتيجة تقييمه للمخالفات خاطئة حتمًا، وكلُّ من فسد تصوُّره للإسلام اختلطت عنده المفاهيم، ولم يستطع أن يميِّز بين الإسلام والكفر، وهذا هو حال أكثر الناس اليوم، يحملون اسم الإسلام ولا يعرفون حقيقته، يقولون لا إله إلا الله ولا يؤمنون بها، يرددونها لفظًا دون أن يفقهوا معناه، يعبدون من دون الله قبورًا وأشجارًا وأحجارًا كما كانت تعبد الجاهلية الأولى، ويتّبعون شرائعَ لم يأذن بها الله بديلًا عن شرع الله في كافة مجالات الحياة، ويخضعون لأحكامٍ وقوانين وضعية ما أنزل الله بها من سلطان، قد جمعوا شرك الجاهلية الأولى وشرك أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ويحسبون أنفسهم من خيار المسلمين؛ لأنهم يتلفظون الشهادتين، ويصلُّون، ويصومون، ويحجُّون، ويقرؤون القرآن، ويعملون بالسنن، ولا يُلقون بالًا لما وقعوا فيه من مخالفات هي في الحقيقة تناقض الإسلام بالكلِّية.

كُلَّمَا راج الكفر وانتشر أضافوه للإسلام، انتشرت أوّلًا عبادة القبور فأضافوها للإسلام، وصار عُبَّادها من خِيار المسلمين، ثم جاءت الديمقراطية فصار الإسلام ديمقراطيًا، وإذا راجت الاشتراكية كان الإسلام اشتراكيًا، وإذا راجت نظرية سيادة الأمة زعموا أن هذه النظرية من نظريات الإسلام، ونادوا باسم سماحة الإسلام إلى زمالة الأديان وما يسمُّونه التعايش السلمي مع الغير، فانهدم أصل الإسلام الذي يُميِّزه عن الكفر، ولم يَعُد هناك حدٌّ فاصلٌ يُعرف به الإسلام من الكفر، ويتميَّزُ به المسلم عن الكافر.

ومازال ظلام الجهل بحقيقة الإسلام يخيّم على سماء الأمة، ولم يدرك الناس بعدُ حجم مخالفتهم لدين الله، ومدى بُعْدهم عنه، وما الذي ينقصهم ليكونوا مسلمين كما يريد الله، لقد جهل أكثر الناس اليوم أن الإسلام استسلامٌ وخضوعٌ وانقيادٌ لحكم الله وحده، وقبول التشريع والتكليف منه وحده، وأنه رسالة عامة للعالمين، شاملة للحياة كلِّها، قائمة على توحيد رب العالمين في الحكم والتشريع والطاعة والعبادة، نسوا هذا كلَّه لدرجة أنهم يعتبرون الحديث عن هذه الحقائق الأصيلة ابتداعٌ في الدين، يخالف منهج أهل السنة والجماعة؛ لأنه اشتغالٌ بالسياسة حسب زعمهم، ولا دخل للدين في السياسة عندهم، ويتّهمون من يتحدث عن هذه الحقائق بأنه يريد الفتنة وزعزعة الوحدة الوطنية.

إن هذا الشرك المتوغل في عقائد الناس، وعباداتهم، ومعاملاتهم، ونظام حياتهم لا يزيله إلا التوحيد، ولن يفكّر الناس في إزالته إلا إذا عرفوه وعرفوا خطورته، وعرفوا أيضًا أنه عين الشرك الذي جاء الإسلام يدعوهم لتركه واجتنابه، والبراءة منه ومن أهله؛ ليكونوا مسلمين، فإذا عرفوا هذه الحقيقة عرفوا أين هم من الإسلام، وما ينقصهم ليكونوا مسلمين كما يريد الله، وبعدها لا يبقى إلا أن يعزِموا على الرجوع إلى الإسلام، ويتوبوا مما هم فيه.

ولذا فإن الواجب على من هداه الله لمعرفة الدين الحق أن يبيِّنه للناس ولا يكتمه، وألا يَلبِس(١) الحق بالباطل، وأن يسعى قدْر طاقته في إظهار الحق وفضْح الباطل، مستعينًا بالله، طالبًا منه الهدى والسداد، راجيًا مغفرته وحسن الثواب.

وعملًا بما نراه واجبًا علينا استعنت بالله في كتابة هذه الرسالة، التي تحمل بين صفحاتها توضيحا ميسّرًا لحقائق هامة، تتعلق بتوحيد الله وإفراده بما يستحقه، وكيفية الإسلام لرب العالمين، وحقيقة اختيار الإسلام، وبيان ما يناقضه من الشرك بالله، وردِّ أحكامه، والخروج عن شريعته، وكذلك بيان مناقضة العلمانية والديمقراطية والليبرالية لدين الله الحق، وبراءة

---

(١) يَلبِس: أي يَخلِط. قال ابن تيمية في الفتاوى: [لبِس الحق بالباطل، إذا خلطه به حتى غَشِيَهُ فلم يتميّز] ا.هـ.

الإسلام منها.

وقد اشتملت هذه الرسالة على أربعة فصول:

الفصل الأول: حقيقة الإسلام.

الفصل الثاني: العلمانية نقيض الإسلام.

الفصل الثالث: الديمقراطية نقيض الإسلام.

الفصل الرابع: اختيار الإسلام واختيار الشريعة.

أسأل الله الهدى والسداد والعون والتوفيق، وأن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم موافقة لشرعه الحكيم، وأسأله سبحانه أن ينفع بهذه الرسالة كل من قرأها، وأن يجزي من ساهم في إخراجها ونشرها خير الجزاء، وأن يبارك في جهودنا جميعًا لخدمة هذا الدين، وأن يجعل عملنا مقبولًا، وسعينا مشكورًا، وذنبنا مغفورًا، وديننا منصورًا، هو ولي ذلك والقادر عليه.

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨ ﴾ [هود: ٨٨].

الفصل الأول

حقيقة الإسلام

الفصل الأول

حقيقة الإسلام

المعنى العام للإسلام هو: الاستسلام لأمر الله والتسليم لحكمه والانقياد لطاعته مع رفض الاستسلام لغيره، قال الله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]، وهذا كقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ۝١٥﴾ [الرعد: ١٥]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٣١﴾ [البقرة: ١٣١]، وقال سبحانه: ﴿قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

فالإسلام هو استسلام وخضوع وانقياد وتسليم طوعًا واختيارًا من العبد لربه، ولهذا الاستسلام والخضوع والانقياد شرطان لا يصح بدونهما:

أوّلهما: أن يكون استسلامًا **خالصًا لرب العالمين** لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٣١﴾ [البقرة: ١٣١]، وقال: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، وقال: ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، وقال: ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ [آل عمران: ٢٠]، وقال: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤]، وقال: ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦٦﴾ [غافر: ٦٦].

ثانيهما: أن يكون الاستسلام والانقياد **بما شرع الله وبما جاء به رسوله** ﷺ، كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ١٣]، وقال: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ۝١٢٥﴾

[النساء:١٢٥]، وقال: ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٣٧ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٣٨ ﴾ [يوسف: ٣٧-٣٨]، وقال: ﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٠٦ ﴾ [الأنعام: ١٠٦]، وقال: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، وقال: ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦ ﴾ [الأنعام: ٥٦]، وقال: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٥٣ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣١ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٢ ﴾ [آل عمران: ٣١-٣٢]، وقال: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣ ﴾ [الأعراف: ٣].

فلا يصدُق اسم الإسلام إلا على الدين الذي شرعه الله، **ولا يصدُق اسم المسلم إلا على من أسلم حياته كلها لله، فعبَدَهُ وحده بقبول شرعه والانقياد والتسليم له، وسَلِم من معاندة أمره وردِّ حكمه وقبول شرع غيره وعبادة ما سواه**، أي استسلم لله بالتوحيد والاتّباع، وسلِم من الشرك والاستكبار والامتناع.

ومدار الإسلام كلّه على توحيد الاستسلام والاتّباع لله وحده، المستحق للعبادة دون سواه، الذي له الربوبية والألوهية على خلقه أجمعين، لا يشاركه فيها أحد.

لماذا نخصُّ الله وحده بالاستسلام لأمره والتسليم لحكمه وقبول شرعه؟

الجواب: **لأنه المتفرد بالربوبية والألوهية.**

فالله وحده خالقنا ومالكنا ورازقنا ومدبِّر أمورنا كلّها، هو المتفرد بذلك كلِّه، لا شريك

له، وهو إلهنا وإله الخلق أجمعين، وكلُّنا عبيده تحت قهره وسلطانه، وليس لأحدٍ حقٌ في أن يُعبد ويُطاع معه.

ولو كان أحدٌ يخلق ويرزق ويملك مع الله لكان له نصيب من الأمر والحكم والسلطة والسيادة، ولو كان له نصيب من الربوبية لكان له الحق في أن يُعبد ويطاع مع الله عَزَّوَجَلَّ، فمن أثبت الخلق لله وحده لابد أن يُثبت له وحده الملك والأمر والسلطان، ولابد أن يُفرده بالألوهية، ويخصُّه وحده بالاستسلام لأمره والتسليم لحكمه وقبول شرعه.

وما دمنا نشهد لله وحده بالربوبية ولا نشهد بها لغيره، ونشهد بأننا عبيده لسنا عبيدًا لأحدٍ غيره، **فعلامة صِدقنا في هذه الشهادة أن نُسلِم له وحده، ونرفُض الاستسلام والخضوع والإذعان لغير سلطانه وحكمه وشرعه.**

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [النمل: ٥٩-٦٤].

وقال سبحانه: ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأنعام: ١٥٠].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةًۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰۚ قُل لَّآ أَشْهَدُۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنعام: ١٩].

الربُّ هو الله جَلَّوَعَلَا، فماذا تعني ربوبيته؟

ربوبية الله تشمل عدة معانٍ، منها:

- الخلق والإنشاء والتربية والإصلاح، قال الله تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾ [الشعراء: ٧٧-٨١]، وقال تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه: ٥٠] وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [الأعلى: ٢-٥].

- المُلك والتصرف والتدبير، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ [المؤمنون: ٨٦]، وقال تعالى: ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِيٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ [قريش: ٣-٤]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ [النجم: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٦].

- السيادة والسلطان وحق الأمر والتشريع، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍۚ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ

أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ [يوسف: ٣٩]، وقال: ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام:١٥١].

فالله عَزَّوَجَلَّ هو الذي أنشأ خلْقه من العدم، وهو الذي يربِّيهم ويصلحهم، وهو مالكهم ومدبِّر شئونهم، المتصرف فيهم بما يشاء، القيُّوم الحفيظ عليهم الذي يحاسبهم ويجازيهم، له الأمر المطلق، والسيادة العليا، والسلطان التام، والحكم النافذ، لا مُعقِّب لحكمه ولا رادَّ لقضائه، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

وكلُّ ما في هذا الكون يشهد لله بالوحدانية، ويشهد ببطلان كل مُدَّعٍ لشيءٍ من خصائص الربوبية مع الله، فمن تفكَّر في نفسه، وتقلُّب أحواله، وفي مبدئه ومنتهاه، وتأمل في خلق السماوات والأرض، وقلّب صفحات الكون، فلن يجد أحدًا غير الله يستحق أن يكون له نصيب من خصائص الربوبية، فلا أحد يَخلُق مع الله، ولا أحد يملك مع الله، ولا أحد يرزق أو ينفع ويضرُّ مع الله، فالخالق واحدٌ، والمالك واحدٌ، والربُّ واحدٌ، وكل ما سواه عبدٌ مخلوق تحت قهره وسيادته وسلطانه، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ [الأعراف: ٥٤]، فالحكم والأمر والسيادة في هذا الكون لا يكون إلا لخالقه ومالكه بلا شريك، قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ [الأنعام: ٦٠-٦٢]، وقال تعالى: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧]، فالله عَزَّوَجَلَّ هو الحَكَم، وله وحده الحُكْم بين عباده في الدنيا والآخرة، لا معقب لحكمه، ولا رادَّ لقضائه، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١].

ولا يستقيم الوجود إلا بهذا، قال الله تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۝٢١ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٢٢ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِيۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ۝٢٤﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٤].

والأمر والحكم يشمل الحكم الكوني والحكم الشرعي؛ فالكوني هو كل ما يحدث في هذا الكون من شيء، كتعاقب الليل والنهار، وتصريف الرياح، وإنزال المطر، وشروق الشمس وغروبها، وحركة الكواكب والنجوم، وتصريف أحوال العباد جميعًا، فما يكون شيءٌ إلا بأمر الله، ولا يتحرك شيءٌ ولا يسكن إلا بأمره.

وهذا يُقرُّ به لله كل من أقرَّ له بالخلق من المسلمين والكفار، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣١﴾ [يونس:٣١].

أما الأمر والحكم الشرعي: هو جميع ما شرَعه الله لعباده من الأوامر والنواهي، والحلال والحرام، والحدود والعقوبات، وسائر الأحكام، والعقائد، والمعاملات، التي تتحقق باتّباعها والتسليم لها عبوديتهم لربهم؛ التي خلقهم من أجلها، وهي دينه الذي رَضِيه لعباده.

وهذا يجب أن يكون لله وحده؛ لأن عليه مدار العبودية، فالعبودية لا تكون خالصة لله إلا بالانقياد والتسليم لأمرِ الله، وقبولِ شرعه، وتحكيمه، والإذعان له، ورفض ما سواه، وما خلقنا الله إلا لنعبده وحده، لا لنعبد غيره، ولا لنكون شركاء معه في الحكم والسيادة والسلطان، قال الله تعالى: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٣٢﴾ [يونس: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة: ٥]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ

لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ [الشورى:٢١].

وكما أن قضاء الله وقدَرَه نافذٌ فينا لا يستطيع أحدٌ ردَّه ولا معارضته، كذلك أمره وحكمه وشرعه لابد أن يكون مسموعًا مطاعًا حكَمًا بيننا، نتلقّاه بالقبول والتسليم والانقياد والرضا، دون معارضة ولا ممانعة، فنحن جميعًا عبيدٌ لله خاضعون لربوبيته وحكمه وسلطانه، لا يخرج أحدٌ منّا عن حدِّ العبودية له، فينبغي أن يكون حالنا مع الله كحال العبد الخالص لسيده، السيد يأمر وينهى، ويحكم بما يريد، والعبد يسمع ويطيع، لا يعارض ولا يمانع، قال الله تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ [الزمر: ٢٩]. قوله: ﴿ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾، هذا مثل العبد الذي له سيدٌ واحد لا يعترف لغيره بالعبودية، أما المثل الآخر: ﴿ رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾، هذا مثل العبد الذي يتنازع فيه أكثر من سيد، فعبوديته ليست خالصة لواحد.

وما دُمْنَا نؤمن جميعًا بأن الله عَزَّوَجَلَّ هو خالقنا ولا خالق لنا غيره، ومالكنا ورازقنا ومدبِّر أمرنا، وأن الأمر والسيادة والسلطان في هذا الكون له وحده، وكل ما سواه عبدٌ مخلوقٌ مستسلمٌ لله ليس له من الأمر شيء، ولا حول له ولا قوة مع الله. فمن أحقُّ أن نستسلم لأمره، وننقاد لحُكْمه، ونتّبع شرعه، ونُخلص له العبادة والطاعة والاتّباع غيره سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؟!

قال الله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ [آل عمران: ٨٣]، وقال: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ [يونس: ٣١-٣٢].

وهل سنجد خيرًا وأحسن من حكم الله وشرعه لنا، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّۗ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ

أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿٣٥﴾ [يونس:٣٥]، لا يهدي إلى الحق والخير والهدى والصلاح إلا الله، وما سواه لا يهتدي لشيء إلا أن يهديه الله. فمن أحق أن يُطاع أمره ويُتَّبع شرعه؟ لماذا لا نخلص لله الانقياد والتسليم، ونهتدي بهديه دون سواه؟

إذا كنَّا حقًّا نؤمن بربوبية الله فلابد أن نختار عبوديته وحده ونرفض عبودية ما سواه؛ لأن هذه هي علامة إيماننا بوحدانية الله، وحقيقة اعترافنا لله وحده بالخلق والملك، والأمر والقضاء والحكم، والسيادة والسلطان، ومن جعل حقَّ الطاعة المطلقة لغير الله فقد اتخذ ربًّا غيره، وهذا ما يفعله الكفار ويبرأ منه المسلمون، قال الله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، وقال سبحانه: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: ٧٩-٨٠].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾ [الشورى: ١٠].

فالله وحده هو المستحق للعبادة دون سواه، وعبادتُه وحده هي حقُّه علينا جميعًا، ما دمنا كلُّنا عبيده تحت قهره وسيادته وسلطانه، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥]، والعبادة لا تشمل جزءًا من حياتنا دون جزء، بل تشمل حياتنا كلّها، فالله عَزَّوَجَلَّ لم يأذن لنا أن نجعل جزءًا من حياتنا لغيره، بل أمرنا جميعًا ألا نعبد إلا إياه، قال الله تعالى: ﴿ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف: ٤٠]، فالواجب علينا ابتداءً أن ننفي الشرك في العبادة عن غير الله، وأن نجعل عبادتنا كلَّها لله وحده، فالله لا يرضى منّا بعبادة أشركنا فيها غيره.

كيف يتحقق إسلامنا لله وحده؟

إخلاص العبودية بجميع معانيها لله وحده، ورفض العبودية لغيره كائنًا من كان هو الطريق الوحيد الذي يتحقق به إسلامنا لله وحده، أن نعبده بالتوحيد والإخلاص في جميع أنواع العبادة، وأن ننفي عنه الشريك والنِّدَّ في جميع خصائص ربوبيته وألوهيته، وأن نَكفُر بما دونه من الأرباب والأنداد والآلهة المزعومة.

هذا هو أصل دين الإسلام ومعناه وحقيقته وركنه الأول وقاعدته، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: **شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ**، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ»[1]، وعَنِ ابْنِ عُمَرَ أَيْضًا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسَةٍ، **عَلَى أَنْ يُوَحَّدَ اللهُ**، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصِيَامِ رَمَضَانَ، وَالْحَجِّ»[2]، وَعَنْهُ أَيْضًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ، **عَلَى أَنْ يُعْبَدَ اللهُ، وَيُكْفَرَ بِمَا دُونَهُ**، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ الْبَيْتِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ»[3].

هذا التوحيد هو الأصل الثابت الذي اجتمع عليه أنبياء الله ورسله من أَوَّلِهِم إلى خاتمهم، لا تبديل له ولا تغيير، قال الله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى: ١٣].

والإيمان بهذا الأصل لا يتحقق إلا بالكفر بالطاغوت والإيمان بالله، على النحو الذي افترضه الله وبعث به أنبياءه اعتقادًا وقولًا وعملًا، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم

(٣) رواه مسلم.

وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦]، والطاغوت: هو كل من تجاوز حدَّ العبودية لله، وصار شريكًا لله في شيء من خصائص ربوبيته أو ألوهيته، والكفر به مقدَّم على الإيمان بالله، فلا يصح توحيد الله إلا بعد الكفر بالآلهة والأرباب المعبودة والمطاعة من دونه(١).

فلابد أن ننفي ابتداءً أي عبادة لغير الله في جميع أعمالنا وأقوالنا وعقائدنا، وفي أي جزء من حياتنا، وأن نعبد الله وحده بالاعتقاد والقول والعمل، ونجعل حياتنا كلَّها عبادة لله وحده، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ [الرعد: ٣٦]، وقال: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾﴾ [الزمر: ١١-١٤]، وقال: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦١-١٦٣].

لابد أن نعبد الله وحده بجميع أنواع الشعائر، ولابد أن نعبده وحده باتّباع شريعته في الحياة كلِّها، ولابد أن نعبده وحده بالولاء والبراء، وحيث أن مفهوم العبادة صار محصورًا في أداء الشعائر، من صلاةٍ، وذكرٍ، وتسبيحٍ، وصيامٍ، ونحوها، وغفل الناس عن الجوانب الأخرى، فلا يسعنا إلا توضيح حقيقة التوحيد كاملة ما اشتهر منها وما نُسي وغُفِل عنه؛

(١) انظر رسالة (ما هو الطاغوت؟ وكيف نكفر به؟) للكاتب.

لتكتمل الصورة الصحيحة لمفهوم العبادة، ويستبين لكل من أراد أن يكون مسلمًا سبيل المسلمين من سبيل المجرمين.

أولًا: عبادة الله وحده بجميع أنواع الشعائر.

الشعائر: جمع شعيرة، وهي كل ما شرَعه الله لعباده من القُرَب والطاعات، التي يؤدُّونها تقرُّبًا بها إليه، فالصلاة وما فيها من القيام، والركوع، والسجود، والذكر، والتسبيح، والخشوع شعائر يُتقرب بها إلى الله، وكذلك الصوم، والحج وما فيه من الطواف، والسعي، والوقوف بعرفة، ورمي الجمار، والبُدْن، والهدي الذي يُهدى إلى البيت كلها من شعائر الله، هذه الشعائر قُرَبٌ وعباداتٌ لله يجب أن تكون خالصة له وحده، وإخلاصها أن نتوجه لله وحده بجميع أنواع الشعائر التعبدية، ونقصد مرضاته والتقرب إليه، ولا نتوجه بشيءٍ منها لغيره، فلا ندعو إلا الله، ولا نستغيث إلا به، ولا نصلي إلا له، ولا نذبح لغيره، ولا نتوكل إلا عليه، وهكذا، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾ [الزمر: ٢]، وقال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝١٦٣﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ۝١٨﴾ [الجن: ١٨].

والتوجه بشيءٍ منها لغير الله يناقض الإسلام من كل وجه، فمن دعا غير الله من قبرٍ، أو ضريحٍ، أو حجرٍ، أو شجرٍ لشفاء مريضٍ، أو نزول مطرٍ، أو نصر على عدوٍّ، أو نجاةٍ من غرقٍ، أو حادث سيارةٍ، أو لحصول البركة؛ فقد أشرك بالله، ومن صلى لغير الله، أو ذبح تقرُّبًا لغيره، أو حجّ لغيره؛ فقد أشرك بالله وجعل الألوهية لغيره، وصار بذلك مشركًا عابدًا لغير الله، ولا ينفعُه ادّعاؤه الإسلام، ولا قوله لا إله إلا الله، سواءً علِم أن شركه يناقض قوله أو لم يعلم؛ لأن الجاهل الذي لا يعرف التوحيد يقولها وهو غير مؤمن بها، فهو لا يعتقد بطلان عبادة غير الله، ولا يبرأ منها، ولا يكفر بما يعبد من دون الله، ولا يخلص العبادة لله وحده. والإيمان

بشهادة أن لا إله إلا الله هو تحقيق التوحيد والبراءة من الشرك وأهله اعتقادًا وقولًا وعملًا، فالتوجه بشيءٍ من العبادة لغير الله لحيٍ، أو ميتٍ، أو شجرٍ، أو حجرٍ تأليهٌ لغير الله يناقض عقيدة التوحيد التي هي أصل الإسلام.

ثانيًا: عبادة الله وحده باتّباع شريعته في الحياة كلها.

المفهوم العام للعبادة هو التذلل والانقياد والخضوع، قال الله تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ۝٤٧﴾ [المؤمنون: ٤٧]، أي منقادون لأوامرنا سامعون مطيعون لنا[١].

وعبادة الله هي تذلُّلنا وخضوعنا واستسلامنا له، وهذا لا يحصل إلا بانقيادنا لأمره وتسليمنا لحكمه، وقبولنا شرعه[٢]، والرضا به، واتّباعه، والاحتكام إليه[٣] في حياتنا كلها الخاصة والعامة، في علاقتنا الفردية مع الله، وفي سلوكنا ومعاملاتنا مع بعضنا البعض، في المجتمع الواحد ومع سائر المجتمعات الأخرى، وكذلك في تعاملنا مع غيرنا من المخلوقات، لابد أن نتّبع في ذلك كلِّه شريعة الله وحده، ولا نتّبع في شيءٍ من ذلك شرائع وقوانين البشر الوضعية، التي لا تستند في مرجعيتها إلى شريعة الله، فكما نعبد الله باتّباع شرعه وحده في صلاتنا ولا نقبل فيها شرعَ غيره، نَعبُده باتّباع شرعه في تنظيم حياتنا، ومعاملاتنا الخاصة والعامة، الداخلية والخارجية في السياسة والاقتصاد والاجتماع وغيرها، ولا نقبل تشريعًا من غيره في أي جانب من جوانب الحياة، فالمسلم لا يفْصِل بين اتّباع شريعة الله في الصلاة والطهارة والزكاة والصوم والحج، واتّباع شريعة الله في سائر جوانب الحياة الأخرى، فالله

---

(١) انظر تفسير الآية عند الطبري والبغوي وابن كثير، وانظر معاجم اللغة في تفسير معنى العبادة.

(٢) قبول شرعه: يعني أن كل ما شرعه الله وبلَّغنا إياه رسوله نتلقاه بالتصديق والقبول والرضا والانقياد.

(٣) الاحتكام إليه: يعني الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله لمعرفة أحكام الحلال والحرام، وسائر أحكام المعاملات، والحدود والعقوبات، وواجبات الحاكم وحقوقه، وواجبات سائر الأفراد وحقوقهم.

عَزَّوَجَلَّ الذي أنزل قوله: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة:٤٣]، هو الذي أنزل: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة: ٣٨]، وأنزل: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ [النور: ٢]، وطاعته هنا كطاعته هناك.

والله عَزَّوَجَلَّ الذي قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [المؤمنون: ٩]، قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾﴾ [المؤمنون: ٥].

والذي قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة: ١٨٣]، هو الذي قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وهو الذي قال: ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فالمسلم يؤمن بهذا كله تصديقًا وقبولًا وتسليمًا وانقيادًا، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور: ٥١]، وقال: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦].

أما الكافر فيؤمن ببعضٍ ويكفر ببعضٍ، ويتّبع شرع الله وشرع غيره، ولا يرى في ذلك حرجًا، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ

ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [البقرة: ٨٤-٨٦].

وتوحيد الله يشمل عبادته وحده بأداء الشعائر التعبدية، ويشمل عبادته وحده باتّباع شريعته في جميع مجالات الحياة، ولابد من توحيد الله في هذا كله، فالأمر باتّباع شريعة الله جاء مقرونًا بالنهي عن اتّباع شرائع غيره، قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية: ١٨]، وقال: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأعراف: ٣]، وقال: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقرن النهي عن عبادة غير الله بالنهي عن اتّباع شرعٍ غير شرع الله، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنعام: ٥٦]، وقال: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ [آل عمران: ٦٤].

فلابد أن نفرد الله بحق الطاعة والاتّباع المطلق، ونبرأ من الاتّباع والطاعة المطلقة لغيره، فما كان من عند الله نتلقاه بالتصديق، والقبول والرضا، والتسليم والإذعان، ونحكم به، ونحاكم إليه، وما كان من عند غيره مما لم يأذن به الله ولم ينزِّل به سلطانَه فلا نصدِّق به، ولا نقبله ولا نرضى به شرعًا لنا، ولا نحكم به، ولا نحاكم إليه، وبهذا نكون في دين الله وعبوديته وحده ونتحرر من عبودية غيره، أما إذا كنَّا نأخذ الأحكام والشرائع من الله في جانب من جوانب حياتنا الخاصة، ونأخذ عن غيره في جوانب أخرى، ونتّبع شريعة الله في الصلاة والزكاة والصوم والحج والأخلاق، ونتّبع شرع غيره في الحكم والاقتصاد والسياسة والمعاملات الخارجية؛ فإن العبادة ستكون لله ولغيره، ولن يكون الدين أبدًا بهذه الكيفية لله وحده، ولن نكون عابدين لله ونحن نشرك به، بل سنكون عبيدًا لغيره شِئْنا أم أبَيْنا.

فالتلقي عن الله في الدين كلِّه عقائده، وشعائره، وأخلاقه، وشرائعه، وحلاله، وحرامه، وقبول كل ما شرعه وأنزله على رسوله، والرضا به، والتسليم له، والحكم به، والاحتكام إليه، هو روح العبادة وحقيقتها، وهو حقيقة الإسلام لله، أي الاستسلام والانقياد الخالص لله الذي لم يُخْلَط بشرك ولا رفْضٍ وامتناعٍ واستكبارٍ.

والتلقِّي عن الله لا يكون إلا عن طريق الرسول ﷺ، فهو المبلِّغ عن الله، ولا طريق لنا لمعرفة ما يحبه الله ويرضاه إلا اتّباع رسوله، وكل ما جاءنا به هو دينه الذي ارتضاه، قال الله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة: ٣]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣-٤]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝٥٤﴾ [النور: ٥٤].

فالرسول ﷺ يُطاع ويُتّبع ويُحكَّم بأمر الله، فطاعته واتّباعه وتحكيمه طاعة لله، قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ۝٦٤ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾ [النساء: ٦٤-٦٥]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣١ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٢﴾ [آل عمران: ٣١-٣٢].

وما أنزل الله كتابه على رسوله إلا ليحْكُم به بين الناس، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء: ١٠٥]، وقال: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّۖ﴾ [الزمر: ٤١]، وقال: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ

ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وكل ما جاء به الرسول من الكتاب المنزل، والسنة الثابتة الصحيحة: القولية والفعلية، والتقريرية هو دين الله الذي يجب علينا - لنكون مسلمين - أن نتلقاه بالتصديق، والقبول والرضا، والانقياد والتسليم، وما خالفه فليس دينًا لله، فلا نصدِّق به، ولا نقبله منهجًا ونظامًا لنا وحكمًا بيننا، بل نرفضه ونجتنبه، ونعتقد بطلانه(١).

فالإسلام لا يقوم إلا على توحيد مصدر التلقّي والتشريع، فلكي نكون مسلمين لابد أن نجعل المرجعية الوحيدة لأحكامنا شريعة ربنا التي شرعها لنا في كتابه وسنة رسوله، نحكُم بها، ونحاكِم إليها، ولا نتخذ مصدرًا آخر للحكم والتشريع واستنباط القوانين غيرها، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ١٠﴾ [الشورى: ١٠]، وقال: ﴿لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٢٦]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ

(١) عندما يكون الكتاب، والسنّة الثابتة: الفعلية، والقولية، والتقريرية هما المصدر الوحيد للتشريع في الإسلام، وإليهما يرجع المسلمون عند النزاع، لا لشيءٍ آخر سواهما، فإن استعمال القياس، أو المصلحة المرسلة، أو سدِّ الذرائع، أو البراءة الأصلية، أو القواعد الأصولية والفقهية فيما ليس فيه نص عن الله أو رسوله لا يعدّ تشريعًا من دون الله واستمدادًا من غيره، ولا مصدرًا مستقلًا للتشريع؛ لأن الميزان الذي قامت عليه والضابط لها هو شرع الله، والعمل بالأحكام الناشئة عن ذلك لا يعد اتّباعًا لشرع غير الله؛ لأن هذا مما أذن الله فيه إجمالًا، والاجتهاد في إطار الالتزام بشرع الله قد يوافق حكم الله وقد يخالفه ويكون خطأً في الاجتهاد فقط، وليس تشريعًا من دون الله؛ لأنه وقَعَ مع قَصْدِ اتّباع الكتاب والسنة وعدم تعمُّد المخالفة، ومتى ظهر للمجتهد مخالفتُه الكتاب والسنة وجب الرجوع إليهما وترك ما وصل إليه اجتهاده، فإن أصرَّ على اجتهاده المخالف مع علمه بالمخالفة كَفَرَ، فلا يحلُّ لأحدٍ عَلِمَ حكْم الله في مسألة أن يتركه لقول فلانٍ كائنًا من كان، فحكم الله هو الحق وإن خالفه جمهور العلماء، وأما الشرائع والأحكام التي يعدُّ قبولها واتّباعها إيمانًا بشرع غير الله فهي التي لم يُراعَ في تشريعها موافقة حكم الله وإذنه في ذلك.

أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، والنِّدُّ هو المثيل والنظير، فمن اتخذ مصدرًا آخر غير شريعة الله يستنبط منه الأحكام والقوانين، ويقبَل منه التشريع، فقد جعل لله نِدًّا، ومن اتخذ مرجعًا لحكمه غير شريعة الله يحكُم به ويحاكِم إليه، فقد جعل لله ندًّا، وهذا هو فعل أهل الجاهلية، قال الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

والتوحيد هو الطريق الوحيد لتحرر البشرية من ذلِّ العبودية لغير خالقها، ففي الإسلام وحده ينعم النَّاس بالحرية والعزة والكرامة، أما في سائر الأنظمة الوضعية فالناس يعبُد بعضهم بعضًا، بعضهم سادة مطاعون، لهم حق الأمر والنهي، وفرض القوانين، وتحديد العقوبات، وغالب الشعب لهم عابدون، يسمعون لهم ويطيعون، يُحلُّون ما أحلّوه، ويحرّمون ما حرّموه، ويقبلون ما شرَعوه، ويحكمون بحكمهم، ويحاكمون إليه، وهذه عبودية لغير الله، وخروج عن دين الله إلى دين من يطيعونه من دون الله.

ثالثًا: عبادة الله وحده بالولاء والبراء.

الولاء المطلق لا يكون إلا لله عَزَّوَجَلَّ، فهو ولي الخلق أجمعين ولا ولي لهم من دونه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [الانعام: ١٤-١٥].

دلّت هذه الآية على أن الوِلاية المطلقة لله وحده، فهو خالق الخلق ورازقهم وولي أمرهم، فهم جميعًا مُحتاجُون إليه وهو غنِيٌّ عنهم، ودلّت الآية أيضًا على أن اتخاذ وليٍّ غير الله شركٌ، وقد نُهينا أن نكون من المشركين، ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾ [الشورى: ٩]، وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا

شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤﴾ [السجدة: ٤]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ۝١٠٢﴾ [الكهف: ١٠٢].

فالولاء المطلق لا يكون إلا لله وحده، ولا يُوالى غيره إلا تبعًا لموالاته، فلا أحد غير الله يستحق أن يُوالى فيه ويُعادى من أجله، وإفراد الله بالولاء كإفراده بالعبادة، فالمسلم لا يعبد إلا الله، ولا يوالي إلا تبعًا لموالاة الله، ولا يتخذ غير الله وليًّا يوالي ويعادي من أجله، قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ۝٢٧﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧]، وقال تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٧﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧]، وقال: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِىٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

هذه هي الكيفية الوحيدة التي يتحقق بها إخلاص الولاء لله وحده، أن يبرأ أوّلًا من الولاء لغير الله، ويبرأ من الآلهة والأرباب المعبودة من دون الله، ويبرأ من الكفار والمشركين، ومن دينهم ومناهجهم وأنظمتهم، ويتوجه بولائه خالصًا لسيده ومولاه، فيوالي الله ورسوله والمؤمنين.

ولفظ الولاء يحمل معاني عديدة، منها ما هو أصل، ومنها ما هو تابع، يشمل الحُبَّ والقرْب والمتابعة والنصرة، كذلك لفظ البراء يدخل تحته البغض والبعد والمعاداة والهجر والاعتزال، وغيرها.

فالولاء منه أصل وفرع، أصله أن يكون لله وحده، وفرعه هو ما كان تابعًا لموالاة الله، والفرع يتبع الأصل وينشأ عنه فيقوِّيه ويثبِّته، وزوال الفرع لا يعني زوال الأصل.

وهذا مثل الطاعة، فالطاعة المطلقة لله وحده، ولا حق لأحدٍ غير الله في أن يطاع لذاته، بل طاعة غيره لا تجب إلا بطاعة الله، فمن أمر الله بطاعته وجبتْ طاعته طاعة لله، ومن نهى

عن طاعته فلا طاعة له. والاعتراف لغير الله بحق الطاعة المطلقة بحيث يطاع أمره، ويُتَّبع حكمه مطلقًا، ولا يُنظر لموافقته أمر الله هو حقيقة الشرك بالله.

كذلك فإن الولاء والبراء الذي لا يقوم على أساس الولاء لله، بل يقوم على شيءٍ آخر يُوالى ويُعادى من أجله، ويَنقُض الولاء لله هو عين الشرك بالله.

فأساس الولاء موالاة الله، وما أمر الله بموالاته وجبت موالاته لله، وما أمر الله بمحبته وجبت محبته لله، وما أمر الله بنصرته وجبت نصرته لله، وما أمر الله بمؤاخاته وجبت مؤاخاته لله.

وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ موالاة رسوله من موالاته، ومحبة رسوله من محبته، وطاعته من طاعته، وتحكيم رسوله من حقيقة الإيمان به، فمن لم يوالِ رسوله ﷺ لم يوالِ الله، ومن لم يُحبَّه لم يحبّ الله، ومن لم يطعه لم يطع الله، ومن لم يحكِّمه لم يؤمن بالله.

أما موالاة المؤمنين ومحبتهم ونصرتهم ومؤاخاتهم فهي فرعٌ عن الولاء لله ورسوله، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۝٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝٥٦﴾ [المائدة: ٥٥-٥٦]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

فولاء المسلم لدينه أوّلًا وقبل كل شيء، قبل الوطن، وقبل القبيلة، وقبل المصالح المشتركة، لا يقدِّم على ولائه لدينه شيئًا، من وافقه في الدين والاه وقرَّبه وآخاه وإن كان من غير قبيلته، وفي غير وطنه، ولا تجمعه به مصالح دنيوية مشتركة، ومن فارقه في الدين تبرّأ منه، وعاداه وأقصاه وإن كان أباه، أو أخاه، أو من قبيلته ومن وطنه، قال الله تعالى: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]، وقال: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ

حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [التوبة: ٢٣].

فالإسلام يوجب على المسلم أن يكون الولاء والبراء في تصوُّره، وفي حركته وعلاقاته بالناس جميعًا على أساسه هو، ومن أقام ولاءَه على أساس آخر غير الإسلام فولاؤُه ليس لله، فلابد أن يكون هناك حدٌّ فاصلٌ، وفرقانٌ واضحٌ، في تصوّر المسلم، وسلوكه، ومعاملاته بين دين الله ومنهجه في الحياة، وبين أي منهج آخر وضعي من عند البشر، لابد أن يكون هناك براءةٌ تامة من كل منهجٍ يعارض منهج الله، براءةٌ في التصور الاعتقادي، فيعتقد جازمًا بطلان كلِّ منهجٍ ونظامٍ سوى منهج الله عَزَّوَجَلَّ ونظامه، وبراءةٌ في السلوك والعمل، فلا يَخلط في عمله وسلوكه في سائر حياته بين منهج الله والمناهج الوضعية الأخرى، لا يَخلط بينهما ولا يحاول أن يقارب بينهما؛ لأن كلَّ منهجٍ ونظامٍ يخالف شريعة الله ليس دينًا لله، ولا يمكن أن يلتقي مع الإسلام أبدًا كما لا يمكن أن يلتقي النقيضان، واتّباعه أو الاعتراف به كفر بدين الله، قال الله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

كذلك لابد أن تكون هناك براءةٌ ومفاصلةٌ في عقيدة المسلم وسلوكه ومعاملاته بينه وبين من اتّبع منهجًا أو نظامًا غير منهج الله ونظامه، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [سورة الكافرون]، وقال: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم: ٣٠-٣٢].

هذه البراءة والمفاصلة والمفارقة الحاسمة في عقيدة المسلم وسلوكه ومعاملاته تجاه كلِّ منهجٍ أو نظامٍ يخالف الإسلام، وتجاه المتّبعين لهذه المناهج والأنظمة المخالفة للإسلام، لا يصح ولاء العبد لربِّه إلا بوجودها وثباتها، واستقامته عليها حتى الموت، ولا يمكن أبدًا إلغاء، أو تمييع الفوارق بين دين الله ومنهجه ونظامه وشريعته، وغيره من مناهج البشر الوضعية القائمة على غير أُسس الإسلام وقواعده، ولا يمكن الالتقاء عليها بالمصالحة، أو المصانعة، أو المداهنة، كذلك لا يمكن أبدًا إلغاء، أو تمييع وتذويب الفوارق بين المسلم المستسلم لله وحده، باتّباع شريعته ومنهجه ونظامه ورفض ما سواها، والمستسلمين لغير الله المتّبعين لمناهج البشر وأنظمتهم العلمانية وتشريعاتهم وقوانينهم الوضعية.

لا يمكن أبدًا إلغاء هذه الفوارق، أو تمييعها، أو تذويبها، أو التقليل من شأنها لا في تصور المسلم وعقيدته، ولا في سلوكه ومعاملته، ولا في نظام حياته، والنظام الإسلامي هو الذي يقوم أساسًا على اعتبار هذه الفوارق ومراعاتها وإرسائها والمحافظة عليها، وأي نظام أو منهج لا يقوم على مراعاة هذه الفوارق، أو يقوم على إلغائها وعدم اعتبارها، أو يقلل من شأنها، فهو نظامٌ جاهليٌ لا يمتُّ للإسلام بصلة، واتّباعه أو الاعتراف به، أو عدم البراءة منه ينقض الإسلام من أساسه، ويُخرج صاحبه من ولاية الله إلى ولاية الطاغوت، قال الله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦-٢٥٧]، فولاية الله لا تتحقق إلا بالكفر بالطاغوت وأوليائه، ومن ذلك الكفر بالمناهج والأنظمة المناقضة لدين الله.

ومن هنا يتبين أن أي محاولة للتقريب بين دين الله وغيره من الأديان الباطلة هي الكفر بعينه، وهي هدمٌ صريحٌ لعقيدة الولاء والبراء التي يقوم عليها الإسلام. وقد انخدع الكثيرون بهذه الدعوات الباطلة، وآمنوا بها ودعوا إليها؛ وذلك لجهلهم بالإسلام، وفهمهم الخاطئ

لدين الله، وعدم إيمانهم بأصله الذي يميِّز المسلم عن الكافر، فمثل هذه الدعوات لا يرضى بها إلا كافر، أما المسلم فيعرف جيدًا أنه لا التقاء أبدًا مع الكفر، وأن القضية التي يختلف عليها مع غيره هي قضية الإيمان بهذا الدين، فمن لم يؤمن بدينه لا يمكن أبدًا أن يواليه ويؤاخيه، ويعرف جيدًا أن رضاه بغير منهج الإسلام في التعامل مع الناس يعني خروجه من الإسلام كُليّةً إلى الكفر، أما أن يبقى المسلم على إسلامه والكافر على كفره، مع إلغاء الفوارق بينهم والتآخي جميعًا تحت نظام عالمي علماني فهذا لا يمكن أبدًا، فالمسلمُ فَارَقَ الكفر وأهله، وتبرأ منهم عقيدة وقولًا وعملًا من أول لحظة دخوله الإسلام، وكلّما تمسك بدينه ازداد الفارق بينه وبين الكافر، قال الله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة: ٣].

إن الواجب على من أراد أن يكون مسلمًا أن يوالي ويعادي وفق مفهوم الإسلام وتصوُّره الصحيح، بدلًا من الموالاة والمعاداة على أشياء مناقضة للإسلام ومبادئه.

إن موالاة أُناسٍ لا يؤمنون بالإسلام دينًا ومنهجًا ونظامًا لحياة البشرية كلِّها، ويرفضون أن تكون العبودية كلُّها لله، ويرفضون أن يكون الاحتكام لشريعة الله وحده، ويرفضون التقيُّد بمنهج الله وحده في الحياة كلِّها، يتناقض تمامًا مع أصل الولاء لله، فهذا ولاءٌ لغير الله، وهو شركٌ بالله لا يبقى معه من ولاية الله مثقال ذرة.

هذه هي حقيقة التوحيد أصل الإسلام ومعنى شهادة أن لا إله إلا الله:

- أن نعبد الله وحده بأداء شعائره خالصةً له، واتّباع شريعته في حياتنا كلِّها، والموالاة والمعاداة فيه.
- وأن نرفض عبودية غيره في جميع مجالات الحياة، نرفض الانقياد والتسليم والاحتكام لغير شرع الله في الاقتصاد والسياسة والاجتماع وغيرها، كما نرفض أن نصلي ونصوم ونحج لغير الله.

❃ وأن نكفر بما يعبده المشركون من دون الله، سواءً من يتوجهون له بالشعائر التعبدية، أو يطيعونه بقبول شرعه والاحتكام إليه، أو يوالون ويعادون فيه من دون الله.

لابد أن نؤمن بأننا جميعًا عبيدٌ لربٍّ واحدٍ هو رب الخلق أجمعين، ونوحِّده اعتقادًا وقولًا وعملًا، ونقيم حياتنا على هذا الأساس، ونتحرر من كل ألوان العبودية لغيره، ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دونه، كما هو واقع الناس اليوم في كل المجتمعات التي تعطي حق التشريع المطلق لغير الله، وتتّبع في تنظيم حياتها شرائع لم يأذن بها الله، ويجب أن نتميز عن العلمانيين والديمقراطيين وسائر الكفار بهذا التوحيد عقيدةً ومنهجًا وشريعةً، ويكون هذا دينًا للفرد وللدولة، ومنهجًا لنا في الحياة كلِّها، وبهذا نكون قد أسلمنا لله واتّبعنا ملّة إبراهيم حنيفًا، وبرئنا من الشرك وأهله، قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وقال: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٨].

الفصل الثاني

العلمانية نقيض الإسلام

الفصل الثاني

العلمانية نقيض الإسلام

لن نتحدث هنا عن الأسماء البرَّاقة، والألقاب الجميلة، والشعارات الأخَّاذة التي يقدِّمها بعض العلمانيين في تعريفهم لعلمانيتهم؛ لأن في ذلك تزييفًا للحقائق، وخداعًا للناس. أيضًا لن نفتري على العلمانية ونأتي بتفسيرات من عندنا مخالفة للحقيقة والواقع، ولكن سنتحدث عن الواقع والحقائق التي يعترف بها أهلها أنفسهم، وسنحاول أن نوضح حقيقة العلمانية من خلال أبرز معالمها ومبادئها الأساسية التي أُنشئت عليها، والتي ينادي بها العلمانيون أنفسهم.

ولعل أبرز معالم العلمانية المطابقة لواقعها: هو فصل الدين عن إدارة الدولة وتنظيم شئون حياة الناس العامة اقتصاديًا واجتماعيًا وثقافيًا وسياسيًا، وهذا هو الهدف التي قامت من أجله من أول أيَّامها في أوربا في نهاية القرون الوسطى، فكان الهدف التخلص من سلطة رجال الكنيسة الذين لم يكونوا ملتزمين أصلًابدين الله ومنهجه في الحياة، ولم يكونوا يحكُمون بما أنزل الله، وإنما كانوا يحكُمون بأهوائهم، ويطوِّعون الدين لرغباتهم وشهواتهم، ويستعبِدون الناس، وكانت لهم السيادة المطلقة في كل شيء، فكان الخروج عن سلطة هؤلاء ورفضها نهائيًا له مبرره، لكن الخطأ أن يُحسب ظلمُ رجال الكنيسة وطغيانهم على دين الله، ويُتخذ ذريعة لرفض الدين كلّيةً، مع أن السبب في هذا الظلم والطغيان هو الابتعاد عن الدين الحق، وتحريفه، وتبديل أحكامه.

وعندما جاء الإسلام لم يؤيِّد ما كان عليه رجال الكنيسة وأهل الكتاب عمومًا من الدين المحرّف والأحكام والشرائع المبدّلة، بل أبطله ولم يعتبره شيئًا، قال الله تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ﴾ [المائدة: ٦٨]، وواجههم بحقيقة أمرهم، وكشَف أباطيلهم وكذِبهم وافتراءهم على الله، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ

بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ فَوَيۡلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ﴿٧٩﴾ [البقرة: ٧٩]، وقال: ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقًا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٨﴾ [آل عمران: ٧٨]، وقال: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وكما أن دين المسيح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بريءٌ مما أحدثه الباباوات ورجال الكنيسة بعده، فإن الإسلام بريء مما أحدثه أتْباعُه من الطرق والمناهج المبتدَعة المخالفة لما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته، وبريءٌ مما وقع من ظلمٍ من بعض أمراء المسلمين وحكّامهم، وجَوْرهم وعدوانهم، وتسلُّطهم بغير حقٍ على رقاب وأموال المسلمين، فلا ينبغي أن يُحسب هذا كلُّه على الإسلام، مع أن السبب في هذا الابتداع والظلم والعدوان والتسلط هو مخالفة الكتاب والسنة، والابتعاد عمّا كان عليه الرسول ﷺ وصحابته، فكيف يصِحُّ أن تُنسب هذه المخالفات إلى الإسلام والإسلام منها بريء؟!

كذلك من الخطأِ أن ننظر إلى الإسلام من خلال واقع الناس اليوم المُتسمِّين بالمسلمين، سواء عامة الناس، أو القادة من العلماء والحكام؛ لأن هؤلاء لا يمثلون الإسلام، لا يمثلونه عقيدةً، ولا شريعةً، ولا خُلُقًا، ولا سلوكًا؛ لأنهم لا يتّبعونه، لا يتّبعه عامة الناس، ولا يتّبعه قادتهم، فكيف يُحسب على الإسلام من لا يتّبعه وليس من أهله.

لابد أن نُبرِئ الإسلام من أخطائنا وعيوبنا ومخالفاتنا، وأن نجرِّده من كل ما أضيف إليه مما خالف كتاب الله وسنة رسوله. وما دام قد تكفَّل الله بحفظ دينه فمن السهل أن نعرف ما هو مِنْ دين الله وما هو مِنْ ابتداع البشر، فلا يفرح العلمانيون كثيرًا بما وجدوه من أخطاء ومخالفات من المسلمين، أو من المحسوبين على الإسلام، يتخذونها ذريعةً في ترك العمل بكتاب الله وسنة رسوله، محاولةً منهم لتبرير موقفهم تجاه الإسلام، فمهما حاولوا أن يستروا

حقيقة علمانيتهم، ويبحثوا عن دواعي رفضهم شريعة الله، تظل ألاعيبهم مكشوفة لكل من يزن الأمور بميزان الله.

هؤلاء العلمانيون المدَّعُون للإسلام اليوم يسيرون على نهج إخوانهم العلمانيين المنتسبين للأديان الأخرى، ويقتفون خُطاهم، ويتّبعون طريقتهم حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ[١]. إن هؤلاء يريدون العلمانية بديلًا عن حكم الله وشريعته التي لم تُبَدَّل من يوم أُنزلت ولن تُبدَّل إلى يوم القيامة، فهم يرفضون الاستسلام والانقياد والتسليم لأمر الله وحده في الحياة كلِّها، وإن زعموا أنهم يرفُضون تسلُّط رجال الدين باسم الدين.

فالعلمانية لا تعني رفض الظلم والاستبداد والجوْر، ولا تعني الحث على العلم والعدل والرُّقي والحضارة، ولكنها تعني رفض الالتزام بأمر الله وحده، ورفض تحكيمِ شريعته في جميع مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية وغيرها، أي أنها ترفض تمامًا أن تكون لشريعة الله الهيمنة والسيادة فوق الجميع، بأن تكون هي المصدر الوحيد للحكم والتشريع، فلا يكون لأحدٍ الحقَّ في التشريع إلا بإذن الله وفي إطار شريعته، وكلُّ ما يخالف شريعة الله فهو باطل. واسألوا من شئتم من العلمانيين عن قولنا هذا، وستسمعون الجواب بأنفسكم.

العلمانية منهج لتنظيم حياة الفرد وعلاقته بالآخرين والحياة العامة للمجتمع، في جميع النواحي السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والأخلاقية، والقانونية، وغيرها، بعيدًا عن سيادة شرع الله الحكيم ودينه القيّم، فالعلمانيون لا يؤمنون بأن شريعة الله ملزِمة لكل البشر، وأنه لا يحِلُّ لأحدٍ أن يخالفها، وأن كلّ ما خالفها باطل، بل يزعمون أن تحكيمها في هذا الزمان لا يناسب عصر التطور والحضارة والتكنولوجيا، فهي لا تصلُح لهذا الزمان في نظرهم، ربما تصلح في بعض الجوانب كتنظيم العلاقات الزوجية والميراث مثلًا، أما أن يكون لها الهيمنة

---

(١) القُذَّة: الريشة التي توضع في مؤخرة السهم، وله قُذَّتان متساويتان، (حذو القُذَّةِ بالقُذَّة): المراد أنهم اتَّبعوهم وتشبَّهوا بهم حتى تساووا معهم كما تتساوى ريشتا السهم.

والسيادة المطلقة في جميع جوانب الحياة، وتكون لها الشرعيّة والمرجعية الوحيدة فلا يُعترف بشرعيّة غيرها فهذا أمرٌ مرفوضٌ عندهم، يقولون لا دخل للدين في السياسة، ويستنكرون بشدة أن يتقيدوا بشريعة الله التي شُرعت قبل أربعة عشر قرنًا ويحتكموا إليها في كل صغير وكبير في هذا الزمان، يستنكرون أن يحكموا بها في علاقاتهم ومعاملاتهم، ويرون في ذلك تقييدًا لحريّتهم، ويستنكرون أن يحكموا بها في علاقاتهم ومعاملاتهم الخارجية المحكومة بقوانين عالمية.

إن هؤلاء العلمانيين الذين يدَّعون الإسلام يتعاملون مع دين الله كأنه من صنع البشر، تمامًا كما يتعامل معه إخوانهم العلمانيون اليهود والنصارى والملاحدة، أولئك الذين يؤمنون بأن للإنسان حقًّا طبيعيًا في السلطة، ووضع القانون الذي يناسبه، وإلغاء ما لا يناسبه، دون التقيد بشرع إلهي، وله أن يتنازل عن هذا الحق لمن يشاء، أو يختار بنفسه من ينُوب عنه في ممارسة السلطة، وبهذه العقيدة يتعاملون مع أحكام الله العلي الكبير، فلا يرونها ملزِمة لهم، بل هم أحرار في اختيار ما يناسبهم ورفض ما لا يناسبهم من غير قيد ولا شرط، ويزعمون أنهم ليسوا محتاجين إلى حكم إلهي وشريعة ربانية لتنظيم حياتهم، وتحديد واجباتهم، وضمان حقوقهم، ويرون أنهم قادرون من خلال عقولهم، وعلومهم المادية، وتجاربهم، ورأي الأغلبية على اختيار النظام والحكم الذي يتماشى مع العصر والتطور والتكنولوجيا بصورة أفضل مما شرعه الله سبحانه وتعالى.

والعلمانيون ينظرون للحياة نظرة مادية بحتة، وليس لهم همٌّ في طلب مرضاة الله في كل قول وعمل، وإنما همُّهم المنافسة في الدنيا، والتمتع بشهواتها وملذاتها، وجَمْع الأموال من غير مراعاة لحدود الله وحلاله وحرامه، فالمال عندهم هو رمز القوة والعزة والعلوّ، وقيمة الإنسان بقيمة ما يملك، (من معه دولار قيمته دولار)، والدنيا عندهم ما هي إلا فرصة للتمتع بالملذات والشهوات دون أي ضابط، وودّوا لو أن الناس انهمكوا في شهواتهم وملذاتهم ونسوا شيئًا اسمه الدين، قال الله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ

وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٣-٤٤]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ [يونس: ٧-٨]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ۚ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأعراف: ٥٠-٥١].

فشتّان بين نظرتهم ونظرة المسلم الذي يؤمن بعقيدة التوحيد التي يكفُر بها العلمانيون، المسلم الذي يؤمن بأنه عبدٌ وليس إلهًا، عبدٌ لله لا لغيره، متحررٌ من عبودية الخلق كلِّها، لا يعبُد بشرًا ولا حجرًا، إنما يعبد الله وحده مخلصًا له الدين، ويكفُر بعبودية ما سواه، ويعتز ويفتخر بعبوديته لرب السماوات والأرض، ويحمد الله صباحًا ومساءً أن اختاره الله عبدًا ورضي له الإسلام دينًا، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾﴾ [محمد: ١٤].

المسلم يؤمن بأن الناس جميعًا في منزلة العبودية لله سواء، وأن الله وحده هو ربُّ الناس ملك الناس إله الناس، وله وحده الحق أن يأمرهم وينهاهم بما يشاء، ويحلِّل لهم ويحرِّم عليهم ما يريد، والواجب عليهم أن يُسلموا لحكمه في كل شئون حياتهم؛ لأنه هو وحده لا غيره الذي وهب لهم هذه الحياة وكلَّ ما يحتاجونه فيها ليعبدوه وحده، فعليهم أن يطيعوه جميعًا ولا يعصُوه؛ لأن نفع طاعته لهم ومضرة معصيته عليهم، وهو غني عنهم وهم فقراء إليه، عليهم أن يختاروا طوعًا بكامل إرادتهم أن يعبدوه وحده، ويلتزموا أحكامه، ويتّبعوا شريعته في كل شؤون حياتهم، ومنها شؤون الحكم والسياسة والاقتصاد وكافّة المعاملات الداخلية والخارجية، ولن يسعَدوا ويعيشوا حياة هنيئة في الدنيا قبل الآخرة إلا بذلك، فالأمر كلُّه لله وحده كما له الخلق والملك وحده، الأمر الكوني القدَري لله وحده؛ لأنه رب هذا الكون كلِّه،

والأمر التكليفي الشرعي لله وحده؛ فهو المعبود المطاع وحده في السماء والأرض، والأمر الجزائي لله وحده؛ فهو مالك يوم الدين وحده.

هذه هي عقيدة الإسلام، وهذا هو منطق العقل السليم والحكمة، وهذا ما يشهد له الكون كلُّه، ولكن العلمانيون لم يهتدوا لهذا وهم يزعمون أنهم دعاة العلم والتفكر والإبداع، فما أبعدهم عن العلم والحكمة، قال الله تعالى:﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٣ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ٦٤﴾ [الزمر: ٦٢-٦٤]، فأي جهلٍ أعظم من الدعوة للخروج عن شريعة الله الحكيم الخبير العليم، واستبدالها بشرائع الجاهلين الضالين المنحرفين.

فالعلمانية ترفض الإسلام بالمفهوم الصحيح الذي ارتضاه الله، القائمَ على عبودية الله وحده في الحياة كلِّها، وترفض تحكيمَ شريعته، والتسليمَ المطلق لأمره، والإذعانَ لسلطانه، وتُغيِّر معنى الإسلام وتُفسِّره حسب هواها، وتجعل له حدودًا وضوابط ضيقة تسمح للفرد أن يستسلم فيها لله ويعمل بدِينه ويأخُذَ عن شريعته.

إن مفهوم الدين عند العلمانية: علاقة خاصة بين الإنسان وخالقه محلُّها القلب، ولا علاقة لها بواقع الحياة، فليس لهذه العلاقة أيُّ تأثيرٍ في معاملاته وشؤون حياته.

فالعلمانيون يقبَلون الإسلام إذا تميَّع أصله على ما يوافق أهواءهم، فإذا تم إلغاؤه كدولة وكشريعة وكمنهج حياة، واقتصر فقط على بعض الأخلاق والعبادات فهو مقبول عندهم. فهم يقبَلون بعض الدين ويكفرون بأغلبيته، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١﴾ [النساء:١٥٠-١٥١]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

وهم يأخذون من دين الله ما يوافق أهواءهم ويردُّون ما يخالفها، فالهوى هو الحاكم على دين الله وليس العكس، قال الله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القصص: ٥٠]، وقال: ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الروم: ٢٩]، ألا ترى كيف ينقِّبون في كتب الفقه والسِيَر والتفسير، ويقلِّبون صفحات الكتاب والسنة، لا بحثًا عن الهدى والنور، ولكن بحثًا عن متشابهٍ يحرِّفون معناه، ويُنْزِلونه على غير واقعه؛ ليؤيِّد باطلهم، ويُصبغ كفرهم بصبغة الإسلام.

ومن المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أن من ردّ شيئًا من أحكام الله ولو حكمًا واحدًا فكأنما ردَّ أحكام الله كلَّها وكَفَر بدينه جملةً، ومن كذَّب بشيءٍ من الدين كأنما كذَّب به كلِّه، ومن طعن في حكمٍ واحدٍ من الدين كأنما طعن في الدين كلِّه، ومن لم يرض بحكم الله فما رضي بالله ربًّا ولا رضي بالإسلام دينًا ولا رضي بمحمدٍ ﷺ رسولًا، ومن رضي بحكمٍ واحدٍ بديلًا عن حكم الله فقد رضي بالكفر دينًا، ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون.

العلمانية وحق التشريع.

المقصود بالتشريع: هو وضع القواعد والضوابط والقوانين التي تبيّن الحلال والحرام، والأحكام والمعاملات، والحدود والعقوبات، التي يلتزم بها الناس في تنظيم شئون حياتهم بمجالاتها المختلفة لضمان حقوقهم والمحافظة عليها، وتحديد واجباتهم والقيام بها، هذه التشريعات تشكّل بمجموعها المنهج الذي يضبط حياة الناس والنظام الذي يحكُمهم.

أمّا في عقيدة الإسلام فالتشريع المطلق حقُّ الله وحده صاحب الملك والسيادة في الكون كلِّه، فما أنزله في كتابه وسنَّه رسوله هو الشرع والمنهج، والدين الذي يجب الإيمان به كلِّه،

وقَبوله، والتسليم له، والاحتكام إليه في الحياة كلِّها، ولا يسع أحدًا الخروج عنه، وليس لأحدٍ أن يشرِّع أحكامًا وقوانين من عند نفسه بغير إذن الله.

فالواجب ما أوجبه الله، والحلال ما أحلّه، والحرام ما حرّمه، والدين ما شرعه، لا حكْم إلا حكْمه، ولا أعدل ولا أحسن من حكْمه، ولا نظير لحكْمه، ولا معقّب لحكْمه، وليس بالناس حاجة لأن يشرعوا لأنفسهم بعد تشريعه، بل عليهم اتّباع شريعته وتحكيمها، وردّ ما تنازعوا فيه إليها، رضي من رضي، وكرِه من كرِه، قال تعالى: ﴿ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١٤ ﴾ [غافر: ١٤]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

وأمّا العلمانيون فلا يؤمنون بأن الأمر، والنهي، والتحليل، والتحريم، والتشريع المطلق لله العلي الكبير، ولا يؤمنون بأن الاحتكام، والطاعة، والاتّباع لشرع الله وحده دون سواه، بل يجعلون لله شركاء وأندادًا، ويتخذون من دونه أولياء يطيعونهم ويتّبعونهم في مخالفة دين الله، ويرون لأنفسهم الحق في التشريع مع خالق السموات والأرض أو من دونه، وأن شريعة الخالق جَلَّوَعَلَا غير ملزِمة لهم، ولا يرضون بتحكيمها في حياتهم، ويؤمنون بأن الحق المطلق في الحكم والسلطة والسيادة للشعب، هو الذي يقرّر الدستور والقانون الذي يحكُمه، والشرائع التي تناسبه، ما يحلّه هو الحلال وإن كان في دين الله حرامًا، وما يحرّمه هو الحرام وإن كان في دين الله حلالًا، ورأي الأغلبية هو السائد ومنه يستمد القانون شرعيته وقداسته، والدستور الذي يُقرُّه الشعب له السيادة العليا التي لا سيادة فوقها، وهو المهيمن والحاكم على ما سواه ولو كان حكم الله، ولا يُعمل بشريعة الله إلا في حدود ما يسمح به الدستور، فأي كفر وطغيان على الله أعظم من هذا؟!

وعادةً ما يجعلون المصادر الرسمية للقانون الوضعي هي: التشريع، والعرف، ومبادئ الشريعة الإسلامية، وقواعد العدالة، ومبادئ القانون العام، على اختلاف ترتيبها وأولويتها بين نظام وآخر.

قال الله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ۝٨٣﴾ [آل عمران: ٨٣]، أفغير طاعة الله يلتمسون ويريدون، وله وحده خضع من في السماوات والأرض وأقرّ له بالعبودية وانقاد له بالطاعة، وإليه يا من تبتغون غير حُكم خالقكم وشريعته منهجًا ونظامًا تَرجِعون وتَصِيرون بعد مماتكم، فمُجازيكم بأعمالكم، وسائِلُكم عمّا اخترتموه دينًا لأنفسكم، ومنهجًا ونظامًا لحياتكم، قال الله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣]، وقال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٦٢ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ۝٦٣ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ۝٦٤ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦٥﴾ [القصص: ٦٢-٦٥]. فما أنتم مجيبون؟ لن يجدوا جوابًا. وإنما الأمر كما قال الله تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ۝٦٦﴾ [القصص: ٦٦]، عَمِيت عليهم الحجة، فلم يجدوا حجّة يحتجّون بها، ولا جوابًا يجيبون به، مما تكون لهم به نجاةٌ ومَخْلَص، فسكتوا ولم يسأل بعضهم بعضًا؛ لأنهم أيقنوا بأنه لا حجة لهم ولا عُذر، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ۝٤٧ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ۝٤٨﴾ [فصلت: ٤٧-٤٨].

العلمانية والشرعية الدولية.

المقصود بالشرعية الدولية: الاحتكام والالتزام بالقوانين العالمية التي قامت بوضعها الدول المؤسِّسة لمنظمة الأمم المتحدة[١]، هذه القوانين شُرعت وِفْقًا لمعايير وأعراف ومصالح

(١) هي منظمة عالمية أنشأتها الدول الكبرى الكافرة بعد انتصارها في الحرب العالمية الثانية، الغاية منها حماية مصالحها، والسيطرة على العالم، والدفاع عن مبادئ العلمانية، والاجتماع على محاربة كل من يقف ضدها؛ لتكون السيادة لها وحدها.

الدول الكبرى؛ لتحقيق رغباتها، وضمان مصالحها، وبسْط نفوذها وسيطرتها، الغرض من وضع هذه التشريعات: أن تَحكم علاقات الدول في العالم في السلم والحرب، وتكون لها المرجعية الأولى في كل قضية من قضايا العالم، حيث تستمد «الشرعية الدولية» منها الأحكام والقرارات، وتستند إليها في الخلافات والنازعات.

العلمانيون يؤمنون بهذه الشرعية الدولية، ويدعون لاحترامها والالتزام بها، ويحرِّمون الخروج عليها، أو معارضتها، أو انتهاك حدودها، وهي القانون المعظّم عندهم؛ ولذلك تراهم يصِفون القرارات التي تخرج من المنظمة العالمية بأنها شرعية، وكل ما يخالفها فليس بشرعي عندهم ولو كان من دين الله وشرعه.

ومعلومٌ أنه لا يُسمح لأيِّ دولة الدخول في عضوية الأمم المتحدة حتى تعلن صراحةً التزامها بميثاقها، واحترامه، والتسليم له، فكل دولة عضو في هيئة الأمم المتحدة تعتبر مؤمنة بهذا الطاغوت؛ لاعترافها به، وموافقتها عليه، واحتكامها إليه.

ولا عجب أن يؤمن العلمانيون المتسبون للإسلام بما يسمونه «الشرعية الدولية»، فهي قرارات إخوانهم الرافضين لدين الله من زعماء اليهود والنصارى والشيوعيين وغيرهم.

أما المسلم فلا يعترف بشرعٍ لم يأذن به الله، ولا يتحاكم إليه، ويؤمن بأن احترام الشرعية الدولية وميثاقها والتحاكم إليه تحاكمٌ إلى الطاغوت وإيمانٌ به، قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [النساء:٦٠].

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾ [محمد: ٢٥-٢٨]،

وقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

العلمانية والحكم بغير ما أنزل الله.

المسلم يعرف أن إسلامه لله يحتِّم عليه أن يتلقى كلَّ أحكام الله وتشريعاته وأحكام رسوله بالتصديق والقبول والرضا والتسليم والانقياد، وأن يحكُم بها ويتحاكم إليها في خاصّة نفسه وفي جميع معاملاته وشئون حياته، وألا يتخذ غير حكْمه وشريعته مصدرًا لأحكامه، ثم هو قد تقع منه مخالفاتٌ لأحكام الله، وتجاوزاتٌ لحدوده قليلةٌ أو كثيرةٌ، وقد لا يحكم بما أنزل الله معصية منه، مع اعترافه بذنبه، أو خطأً، أو جهلًا، فلا يكون كافرًا مع بقاء أصل الإيمان عنده ثابتًا، فهو لا يجيز لنفسه ولا لغيره مخالفة شيءٍ من أحكام الله ورسوله، بل يعتقد وجوب اتّباعها والعمل بها كلِّها، ولا ينكر شيئًا منها، ولا يستهين بها، ولا يرفض العمل بشيءٍ منها، ولا يبدِّل ويغيِّر في شيءٍ منها، بل يؤمن بها كلِّها كما أنزلت، ولا يقبل شرعًا لم يأذن به الله، ولا يحكُم به، ولا يتحَاكَم إليه، ولا يتخذ لحكْمه مصدرًا غير شريعة الله، ولا يعْدِل عن حكم الله إلى غيره؛ فإذا خالف حكْم الله يكون تأثيمه على حسب السبب الذي جعله يخالف حكم الله، إن كان عن خطأٍ وجهلٍ من غير تقصيرٍ فلا إثم عليه، وإن كان عن تقصير منه في طلب حكم الله من محلّه فإثمه على حسب تقصيره، أو كان متعمدًا المخالفة عملًا لا اعتقادًا مع إقراره بذنبه، فهذا هو الذي يقال عن مخالفته للحكم بما أنزل الله أنها كفر دون كفر، أي كفر أصغر غير مخرج من الملة، ولكنه من كبائر الذنوب دون الشرك، ولا ينطبق عليه من كل وجه قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المائدة: ٤٤]، فهذه الآية نزلت فيمن استبدلوا بحكم الله حكم غيره، أو حكَموا بشرع غير الله بديلًا عن شرع الله، فقد ذكروا في سبب نزولها قصة اليهود ومجيئهم للنبي ﷺ في قضية الزنا، عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ،

قَالَ: مُرَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِيَهُودِيٍّ مُحَمَّمًا[(١)] مَجْلُودًا، فَدَعَاهُمْ ﷺ، فَقَالَ: «هَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ؟»، قَالُوا: نَعَمْ، فَدَعَا رَجُلًا مِنْ عُلَمَائِهِمْ، فَقَالَ: «أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى، أَهَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ» قَالَ: لَا، وَلَوْلَا أَنَّكَ نَشَدْتَنِي بِهَذَا لَمْ أُخْبِرْكَ، نَجِدُهُ الرَّجْمَ، وَلَكِنَّهُ كَثُرَ فِي أَشْرَافِنَا، فَكُنَّا إِذَا أَخَذْنَا الشَّرِيفَ تَرَكْنَاهُ، وَإِذَا أَخَذْنَا الضَّعِيفَ أَقَمْنَا عَلَيْهِ الْحَدَّ، قُلْنَا: تَعَالَوْا فَلْنَجْتَمِعْ عَلَى شَيْءٍ نُقِيمُهُ عَلَى الشَّرِيفِ وَالْوَضِيعِ، فَجَعَلْنَا التَّحْمِيمَ وَالْجَلْدَ مَكَانَ الرَّجْمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَكَ إِذْ أَمَاتُوهُ»، فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾ [المائدة: ٤١]، يَقُولُ: ائْتُوا مُحَمَّدًا ﷺ، فَإِنْ أَمَرَكُمْ بِالتَّحْمِيمِ وَالْجَلْدِ فَخُذُوهُ، وَإِنْ أَفْتَاكُمْ بِالرَّجْمِ فَاحْذَرُوا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [المائدة:٤٥]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [المائدة:٤٧] فِي الْكُفَّارِ كُلُّهَا[(٢)].

فاليهود مقرُّون بجريمة الزنا، ويعرِفون أن حدَّ الله في الزاني الثيِّب هو الرجم، ولكنهم استبدلوا بحكم الله (الرجم) حكم غير الله (الجلد والتحميم)، وصار هو المعمول به عندهم بدلًا عن حكم الله، وهذا هو الكفر الأكبر المناقض للإيمان بالله ودينه ورسوله، من فعله فهو من الكافرين وإن كان يزعم الإسلام ويتلفظ الشهادتين، سواء استحلّ ذلك أو لم يستحلّه؛ لأن هذا الفعل نفسه كفرٌ، واعتقادُ جوازِه كفرٌ آخر.

(١) محمَّمًا: (بالتشديد اسم مفعول من التَحْمِيم بمعنى التسويد) أي مسوَّدًا وجهُه بالحُمَمْ، وهو الرماد والفحم وكل ما احترق من النار.

(٢) رواه مسلم.

أما العلمانية فهي تقوم أساسًا على رفض الاحتكام لله وحده في الحياة كلِّها، ورفض التسليم المطلق لأمره، ورفض تحكيم شريعته، وتتخذ من القوانين الوضعية وشرائع المشرعين من دون الله التي هي حكم الجاهلية بديلًا عن حكم الله، قال تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠ ﴾ [المائدة: ٥٠]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٤٤ ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ۝٦٠ ﴾ [النساء: ٦٠]، يتركون حكم الله ويتحاكمون إلى ما سواه من شرائع البشر، الذين لا يرجعون في حكمهم وتشريعهم إلى كتاب الله وسنة رسوله، فالقوانين والشرائع الوضعية طاغوت، ومشرِّعها طاغوت، والذي يتخذها مصدرًا لحكمه طاغوت، والمتحاكم إليها كافر بالله مؤمن بالطاغوت.

وكل الأنظمة التي لا تحكِّم شريعة الله هي أنظمة طاغوتية علمانية، سواء تركت تحكيم الشريعة كلِّيةً، أو تركت بعضها وقبِلت بعضًا، فاتخاذ أحكامِ الشريعة الإسلامية مصدرًا من أحد مصادر القانون لا يُعدُّ حُكْمًا بما أنزل الله؛ لأنهم يساوون بين شريعة الله وشرائع البشر وقوانينهم وأعرافهم، ولا يوحدون الله بقبول شرعه كلِّه وتحكيمه في الحياة كلِّها ورفض ما خالفه، وما قبِلوه من شريعة الله هو ما وافق أهواءهم بعد أن طُرِح للتشاور عليه في مجلس التشريع، وعُرِضَ على الاستفتاء كغيره من التشريعات الوضعية.

فسواءٌ كانت العلمانية ترفض حكم الله وشريعته جملةً، أو تقبل بعضها وترفض بعضًا، كلُّ هذا يناقض الإسلام من أساسه؛ لأن الإسلام يقوم أولًا على رفض الاستسلام والانقياد والاحتكام لغير الله، والكفر بالقوانين والشرائع والدساتير الوضعية الطاغوتية، والكفر بمشرّعيها وأتباعها، (لا إله: الكفر بالطاغوت)، ويقوم على التسليم لأمر الله، والانقياد له،

وقبول شرعه، وتحكيمه واتّباعه في الحياة كلِّها، سواء في السياسة، أو الاقتصاد، أو الفكر، أو الثقافة، أو الرياضة، أو الاجتماع، أو غيرها (إلا الله: الإيمان بالله)؛ على هذا يقوم الإسلام، وهو الحدُّ الفاصل بين دين الله وسائر الأديان الأخرى الباطلة، ولا يكون الإنسان مسلمًا إلا بهذا، قال الله تعالى: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٣٩ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٠﴾ [يوسف: ٣٩-٤٠]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦﴾ [الكهف: ٢٦]، وكما قال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ۝١١٠﴾ [الكهف: ١١٠]، فالحكم لله وحده، والعبادة له وحده، ذلك هو دينه القيِّم، فمن لم يوحد الله في حكمه لم يوحده في عبادته، فلابد من نفي الشرك في الحكم والعبادة سواء، وبغير ذلك فزَعْمُ الإسلام دعوى باطلة وأماني كاذبة.

والعلمانيون لا يوحدون الله في حكمه، ولا يوحدون في عبادته، بل هم أبعد الناس عن التوحيد، صدورهم منشرحة للشرك، وقلوبهم مستبشرة به، تشمئز إذا ذكر الله وحده، وتفرح إذا ذُكر الذين من دونه، ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٤٥﴾ [الزمر: ٤٥]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ۝١٢﴾ [غافر: ١٢]، عندما يسمعون النداءات بتوحيد مصدر التلقي والتشريع وأنه لا حكم إلا لله ينقبضون ويتضايقون، ويعلوهم الهمُّ والغمُّ، وإذا سمعوا صوت الشرك ينادي بدولة الدستور والقانون والحريات بمفهومها العلماني استبشروا به وهتفوا له، قال تعالى: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٥٠﴾ [النور: ٥٠].

العلمانية والولاء لغير الله.

الولاء في الإسلام لله ولرسوله وللمؤمنين، ولا يكون الدين خالصًا لله حتى يكون الولاء لله وحده دون غيره، وعلامة الولاء لله أن يكون على الإسلام، فالمسلم له على كل المسلمين حق الولاء ولو كان بعيدًا، وغير المسلم لا ولاء له وإن كان قريبًا، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٧٨-٧٩]، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [التوبة: ٢٣]، وروى مسلم في صحيحه: بَابُ مُوَالَاةِ الْمُؤْمِنِينَ وَمُقَاطَعَةِ غَيْرِهِمْ وَالْبَرَاءَةِ منهم. عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جِهَارًا غَيْرَ سِرٍّ، يَقُولُ: «أَلَا إِنَّ آلَ أَبِي، يَعْنِي فُلَانًا، لَيْسُوا لِي بِأَوْلِيَاءَ، إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللَّهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ»(١)، فموالاة الله وموالاة أعدائه لا يجتمعان في قلب مسلم، بقدر ما يوالي المسلمُ الكافرَ تضعف موالاةُ الله عنده، فإذا والاهم في دينهم بالحبّ، أو النصرة، أو الإعانة، أو الرضا، أو الركون كان فردًا منهم ولم يكن من الله في شيء، قال الله تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ

---

(١) رواه مسلم.

وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ [المائدة: ٨٠-٨١]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ [آل عمران: ٢٨].

والعلمانيون لا يؤمنون بهذا، ولا يوالون ويعادون على أساس الإسلام، وإنما يوالون ويعادون على أساس الوطن أو الحزب أو غير ذلك، ولا يُعِيرون اهتمامًا لفارق الدين بين أبناء الوطن الواحد، فالوطن مقدّمٌ على الدين، بل يعملون على إذابة الفوارق التي يقيمها الإسلام بين أتباعه وأتباع غيره من الأديان، ويحاولون صهر الجميع في إطار واحد تحت مظلة الأخوة الإنسانية؛ ولهذا يؤيدون فكرة التقارب بين الأديان، ويعملون جاهدين على محو البقية الباقية من عقيدة الولاء والبراء، ويَصِفون من يتكلم على تكفير الكفار والبراءة منهم بأنه تكفيري متشدد، أو إرهابي متطرف، تنفيرًا للناس وإبعادًا لهم عن الإيمان الصحيح بعقيدة الولاء والبراء، وهم يعلمون جيدًا أنه كلّما تميّع الحدُّ الفاصل بين المسلمين والكفار تميّع مفهوم الإسلام نفسه عند أتباعه، والتبس الحق بالباطل، وأُتيح لهم الجوّ المناسب لنشر علمانيتهم، والعمل بها بين من يحملون اسم الإسلام، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ [السجدة: ١٨]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿٣٦﴾ [القلم: ٣٥-٣٦]، وقد تميّعت فِعْلًا عقيدة الولاء والبراء عند أكثر الناس، ولم يبق لها أثر يُذكر، انظر إليهم كيف يقدِّمون الولاء للوطن على الولاء للدين، فالذي يزعم أنه من حزب إسلامي، والذي يصرّح بعلمانيته يجلسان على مائدة واحدة، ليقرّرا تحكيم الشريعة أو رفضها، هذا يقول نحكم بالشريعة، والآخر يقول لا دخل للدين في السياسة، وكلاهما أخوان متحابّان، يجمعهما وطنٌ واحد!!

فالمسلم، والوثني، والنصراني، واليهودي، والشيوعي، والمجوسي، والبوذي كل هؤلاء وغيرهم في ظل الفكر العلماني بمنزلة واحدة، متساوون في الحقوق والواجبات ماداموا أبناء

وطن واحد، لا تمييز لأحدٍ عن الآخر، وهم يروِّجون لهذا تحت شعار الوحدة الوطنية، فالولاء عندهم للوطن فهو فوق الجميع، ولهذا يعتبرون دعوة التوحيد إثارةً للفتنة، وزعزعةً للوحدة الوطنية، فيرفضون الحديث عن الولاء والبراء والتمييز بين الناس على أساس الإسلام، وينادون بالدعوة إلى القومية أو الوطنية؛ لأنها دعوة تعمل على تجميع الناس تحت جامعٍ وهمي من الجنس، أو اللغة، أو المكان، أو المصالح، على ألا يكون الدين عاملًا من عوامل التجميع، بل الدين من منظور هذه الدعوة يُعدّ عاملًا من أكبر عوامل التفرّق والشقاق. والحق أن الوطنية والقومية لو أثيرت بين أُناسٍ مسلمين لكانت سببًا في الشقاق والتفرق، فليسألوا أنفسهم من هم الذين لا يجمعهم إلا الوطنية والقومية ويفرِّقهم الإسلام؟؟!!

والعلمانية لا تريد أن يعلو الإسلام على ما سواه، ويكون له السلطان في الأرض جميعًا، فهم يرفضونه، يرفضون من البداية الدخول تحت حكم الله وسلطانه المطلق، وقد فصلوا بينه وبين الحياة العامة، وجعلوه مجرّد علاقة خاصة بين الإنسان وربّه، بحيث لا يكون لهذه العلاقة تأثير في أقواله وأفعاله وسلوكه خارج مكان العبادة.

والقتال المشروع عند العلمانيين هو القتال للدفاع عن المال أو الأرض، أما الدفاع عن الدين والعمل على نشره والقتال في سبيله، فهذا عندهم عمل من أعمال العدوان والهمجية، قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ۝٧٦ ﴾ [النساء: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨ ﴾ [الصف: ٨]، وقال تعالى: ﴿ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴾ [النساء: ٤٤].

العلمانية وحرية الاعتقاد.

لاتؤمن العلمانية بعقيدة التوحيد وشمول عبودية الله وحده لحياة الإنسان كلِّها ومعاملاته وأخلاقه، ولا تؤمن بأن الحق ما كان من عند الله وما سواه باطل وضلال، ولا تؤمن بالتلقّي

عن الله وحده في كلِّ ما يجب اعتقاده، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس: ٣٢]، ويقول سبحانه: ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [هود: ١٧]، ويقول تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴿٣﴾ ﴾ [محمد: ٣].

والعلمانية لا تفرق بين عقائد الإسلام وغيره من العقائد الباطلة، والخرافات والأفكار والنظريات، وتنظر إلى العقائد التي شرَعها الله، والتي هي من الثوابت في دين الإسلام على أنها مجرّد آراء وأقوال شأنها شأن العقائد الأخرى الباطلة، وليست مسلَّمات وحقائق ثابتة، وتؤمن بأن لكلِّ إنسانٍ حقًّا طبيعيًّا في اعتقاد ما يشاء ولو كان الشرك أو الإلحاد، وأنه ليس لأحدٍ أن يحدِّد ما يجب على الناس اعتقاده؛ ولهذا فإنها تبيح للفرد حرية الاعتقاد والديانة بما يشاء، ولا حرج عليه في ذلك، وهي حرية شخصية لكل فرد لا دخل لغيره فيها، سواءٌ دان بدين الله أو بما يناقضه من الأديان، والعقائد، والأفكار، والنظريات الكفريَّة الجاهلية الباطلة، وللفرد أن يغيِّر دينه وعقيدته كيفما شاء، لو شاء أن تكون له في كلِّ يوم عقيدة تخالف عقيدته السابقة فله ذلك من غير قيد ولا شرط، فهذا الحقُّ عندهم من الحقوق التي لا يجوز تقييدها أو تخصيصها، بل هو حقٌّ مطلقٌ وحريةٌ متاحةٌ للجميع مكفولة بالقانون. غير أنها تخالف ذلك واقعًا فهي تتدخل في حياة الفرد الخاصة، وتفرض عليه العمل بما يراه مخالفًا لدينه، وتقدّم تفسيرات للحياة مدَّعية أنها حقائق علمية لا مجال لإنكارها، وهي بعيدة كلَّ البعد عن الحقائق، وتعتبر نفسها رقيبة على حياة الناس، فالحرية التي تعطيها للفرد حرّية مضبوطة بحدود وقيود وِفْقَ ما يسمح به الفكر العلماني، قال الله تعالى: ﴿ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٧-٦٨].

العلمانية وحرية الرأي والتعبير.

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [ق: ١٨]، ويقول: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٦]، ويقول: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾ [النساء: ١٧١]، ويقول: ﴿ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠]، ويقول: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [النحل: ١١٦].

وتتبجَّح العلمانية داعية إلى الحرية المطلقة في الرأي والتعبير، وتعتبر نفسها الحارس الأمين لها، وتراها حقًّا طبيعيًّا لكلِّ إنسان، وتزعُم أن تقييدها بحدود الدين يعني حرمانه من حقِّه الطبيعي.

والمراد بحرية الرأي والتعبير أنه يحِقُّ لكلِّ فرد أن يُبدي رأيه في كلِّ شيءٍ موافقًا أو معترضًا، ويحق له أيضًا أن يعبِّر عن رأيه وفكره أيًّا كان بأيِّ وسيلة من وسائل التعبير، فله أن يتكلم ويكتب ويعترض على أي حكم من أحكام الله، أو يطعن في دينه، أو يرفُض تحكيم شريعته، أو يدعو إلى الكفر والإلحاد، كلُّ هذا تحت شعار حرية الرأي والتعبير، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [النساء: ٤٦]، تحريف كلام الله عن قصدٍ لفظًا أو معنى، والسخرية بالله وآياته ورسوله تصريحًا أو تعريضًا، والطعن في دين الله، كلُّ هذا كفرٌ في ميزان الله يستحق صاحبه اللعنة، وأما في ميزان العلمانية فحرية رأي وتعبير.

والعلمانية لا تعطي هذه الحرية للدعوة إلى التوحيد بقدر ما تعطيه للدعوة للكفر والفسوق؛ لأنها تُدرك جيّدًا أن الدعوة إلى التوحيد تعني نقض العلمانية ورفضها من الأساس.

العلمانية والحرية الجنسية.

تعتبِر العلمانية الحرية الجنسية حقًّا طبيعيًّا لكلِّ فرد، فكلٌّ من الرجل والمرأة في الدين العلماني له الحرية التامة في اختيار السلوك الجنسي الذي يروق له ويهواه دون أي ضابط من الدين، فالزنا والسِّحاق واللواط، كلُّ ذلك مباحٌ كإباحة الزواج الذي شرعه الله، والأفعال التي يجرّمها قانون العلمانية في جرائم العِرض إنما يجرّمها لكونها تشكّل اعتداءً على الحرية الجنسية فحسْب، كما في صورة الاغتصاب، أو هتْك العرض بالقوّة، حيث أن الجاني قد أرغم المجني عليه على سلوكٍ جنسي لم يختره بنفسه.

فالزنا لا يُعدّ جريمة في الأنظمة العلمانية إذا كان برضا الطرفين، بل هو أمرٌ مباح وحرية شخصية، وقد يشترطون موافقة الزوج أو الزوجة، فتجد في قانون العقوبات أن الزنا إذا وقع برضا الطرفين وهما غير متزوجين وسِنُّهما فوق الثامنة عشرة فلا شيء عليهما، وإن كانا متزوجين فلا عقوبة عليهما ما لم يرفع أحد الزوجين دعوى ضد الزوج الخائن.

والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧﴾ [المؤمنون: ٥-٧].

وللنساء في ظل الأنظمة العلمانية الحرية المطلقة في التبرج، وارتداء الملابس الفاتنة، وكشف العورات، ولهنَّ الحرية المطلقة في مخالطة الرجال ومصاحبتهم، وللرجال أيضًا الحرية في ذلك، وكلُّ هذا إباحة لما حرَّمه الله، ونشرٌ للفوضى والرذيلة وفساد الأخلاق.

قد يقول قائل: أننا نحتفظ بأخلاقنا وتعاليم ديننا، والعلمانية لم تفرض علينا انحلال الغرب وتفسُّخَه، والواقع أن العلمانية تختار التدرج كأسلوب لإفساد المجتمعات، فهي توفر المحيط المناسب أولًا عن طريق وضع القوانين التي ترعى الحريات الشخصية والإباحية، وتحميها وتشجِّع عليها، ثم يتكفل التعليم والإعلام بالبقية الباقية، ويكفي العلمانيةَ شرًّا اعتبارُها ما حرَّم الله أمرًا مباحًا وحرية شخصية.

العلمانية وحرية التّملُّك.

يقول الله تعالى إخبارًا عن قوم شعيب: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾ [هود: ٨٧]، وذلك عندما قال لهم: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [هود: ٨٤-٨٥].

دعا شعيبٌ قومه إلى عبادة الله وحده، وطاعة أمره، واتّباع شريعته في معاملاتهم وشئون حياتهم، وترْك ما هم عليه من الشرك والظلم، وتطفيف الكيل والميزان، والبخس والغش والإفساد في الأرض، فردُّوا عليه بأنهم أحرارٌ في عقيدتهم، يعبدُون ما يشاءون، وأحرارٌ في أموالهم يتصرفون فيها بما يريدون، وقالوا له مستهزئين أن ما أمرهم به لا يقوله حليم رشيد.

هذه هي نظرة الكفار، لا يؤمنون باتّباع شريعة الله في المعاملات، ويرون أن التقيُّد بها يتنافى مع الحرية الشخصية، تأمل قولهم: ﴿ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ ﴾ [هود: ٨٧]، فهم يرون أن المال مالهم، وأنهم أحرارٌ في التصرف فيه كيفما شاءوا، والله يقول: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ﴾ [الحديد: ٧]، فالمال مال الله، وقد استخلفنا الله فيه، فالواجب علينا ألا نتصرف في مال الله إلا بما يوافق شرع الله، هذه نظرة الإسلام وتلك نظرة العلمانية.

تمنح الأنظمة العلمانية الفرد الحرية المطلقة في الكسب والتملك والثراء بلا قيود ولا ضوابط ولا أخلاق، وله الحرية في إنفاق المال في أي جهة شاء، ولو كان ذلك على الفساد والرذيلة، وليس للفقير أو المسكين أو المحتاج حقٌّ في مال الغني، ولا دخل للدين في معاملات الناس وعقودهم وبيْعهم وشرائهم، والدولةُ غير ملزَمة باتّباع أحكام البيوع في معاملاتها، وخصوصًا المعاملات الخارجية مع الدول الكبرى، والربا هو عماد الاقتصاد

العلماني، وعليه تؤسَّس البنوك وتُعطى القروض، وهو وسيلة شريفة ومشروعة عندهم لكسب المال.

كذلك فإن النظم العلمانية تبيح شرب الخمور والمسْكرات، وتبيح بيعها وشراءها والمتاجرة بها، هكذا كأي سلعة مباحة تدخل في نظام التغذية.

هذه هي حقيقة العلمانية، نترك للقارئ أن يقارن بينها وبين ما عرفه في الفصل الأول عن حقيقة الإسلام، وبعدها يجيب عن هذه التساؤلات:

هل يمكن أن تجتمع العلمانية مع الإسلام؟!

هل يمكن أن يجتمعا في شخص واحد فيكون مسلمًا علمانيًا في آن واحد؟!

هل يمكن أن يجتمعا في نظام واحد فيكون نظامًا علمانيًا إسلاميًا؟!

هل يمكن أن يجتمعا في بلدٍ واحدٍ فيكونُ بلدًا إسلاميًا علمانيًا؟!

هل يمكن أن يكون الشخص الواحد موحدًا لله ومشركًا به في آن واحد؟

هل يمكن أن يجتمع توحيد الله في الحكم والتشريع، والاستسلام والخضوع، مع إعطاء حق الحكم والتشريع المطلق لغير الله، وإعطاء السيادة والشرعية لغير شريعته؟!

العلمانية نقيض الإسلام ولا يمكن أن يجتمعا أبدًا، فهما طريقان متباينان لا يلتقيان، ومنهجان متغايران، وضدان لا يجتمعان أبدًا، واختيار أحدهما رفض للآخر، من اختار الإسلام لابد أن يرفض العلمانية ويكفر بها، ومن اختار العلمانية فقد رفض الإسلام وكفر به شاء أم أبى، وإن لم يعترف بذلك، هذه حقائق، وستظل حقائق، وإن جهلها الناس وأنكروها وجحدوا بها.

قال الله تعالى: ﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف: ٣٩-٤٠].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ [النساء: ١١٥].

وقال سبحانه: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنًا وَكُفۡرًاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٨﴾ [المائدة: ٦٨].

الليبرالية فرع عن العلمانية.

من المذاهب المتداولة في المجتمعات التي تتسمى بالمجتمعات الإسلامية مذهب الليبرالية، سنتطرق إليه في عجالة؛ لأنه لا يختلف عن سابقه، فالليبرالية وليدة العلمانية، ولا نريد أن نتوسع في ذكر ما نقلته الكتب والمعاجم حول معناها، فمنها ما وصفها على حقيقتها ومنها ما حاول أن يُخرجها في ثوب جميل يستر به باطلها؛ لتكون مقبولة نوعًا ما في الأوساط التي مازالت فيها بقية من تعاليم الإسلام.

والمفهوم العام للمذهب الليبرالي حسب ما هو متداول بين أهله هو الحرية المطلقة.

ويقصدون بها أن يكون الإنسان حرًّا في أن يفعل ما يشاء، ويقول ما يشاء، ويعتقد ما يشاء، ويحكم بما يشاء، فهي التحرر المطلق من الضوابط والمعايير عمومًا، والدينية على وجه الخصوص، فالحرية التي تدعو إليها الليبرالية لا ضابط لها من شرع الله، بل ضابطها القانون الوضعي.

وهذه النظرة ما هي إلا فرع عن شجرة العلمانية الخبيثة التي تؤمن بأن حرية الإنسان الشخصية حقٌّ طبيعيٌّ لكل إنسان، لا تُقيَّد بشرعٍ إلهيٍّ ولا غيره، ويزعم العلمانيون أن قوانينهم الوضعية تحمي هذه الحريات إلا إذا تعارضت مع حرية الآخرين، فلا يرضَون بشرع الله ضابطًا لحرياتهم المزعومة، ويرضَون بحدود القانون الوضعي حيث الهوى والشهوات، فهي دعوى صريحة للإباحية، وتشجيع الفساد ونشر الرذيلة تحت ذريعة الحرية الزائفة، والتي

هي في حقيقتها طاعة للشيطان وعبودية للهوى، قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾ [النساء: ١١٩-١٢١].

والحريات التي تركِّز عليها الليبرالية هي: حرية الاعتقاد، والرأي والتعبير، وحرية الملْكية الشخصية، وحرية اختيار السلطة وتأسيس الأحزاب (التعددية السياسية)، وكلُّها غير مضبوطة بشرع الله، بل أساسها التحرر من قيود الشرع المطهّر.

فالعلمانية والليبرالية أساسهما نظرية جاهلية مادية إلحادية كفرية مفادها: أن الإنسان مستقلٌّ بحياته، حرٌّ في تصرفاته، قادرٌ على تنظيم حياته بنفسه، ليس في حاجة إلى شرع إلهي يحكم حياته ومعاملاته، وأن العقل البشري قادرٌ بنفسه على إدراك المصالح والمنافع، واتخاذ القرارات التي تحكُم معاملات بني البشر مع بعضهم دون الحاجة إلى اتّباع شريعة الله وطاعة رسله، وهي إشارة إلى تقديم وتقديس العقل المادي على الشرع الإلهي، ولهذا يزعُم العلمانيون أنهم دعاة العلم والفكر والثقافة والتطور في كل شيء، وعدم التقيّد بالقديم، ويصفون من عداهم بالتخلف والرجعية، وعدم الاهتمام بالعقل والعلم والفكر.

قال الله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ [الرعد: ١٩].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: ٥١].

وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران:١٦٤].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ۝٥٨ ﴾ [يونس:٥٧-٥٨].

وقال تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ۝١٦٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ۝١٦٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ۝١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ۝١٦٩ ﴾ [النساء: ١٦٦-١٦٩].

لقد أصبح الاعتماد على العقل المادي المجرّد، وإبعاد الدين والقيَم والأخلاق من أبرز سمات الجاهلية المعاصرة، فكلُّ المذاهب التي ظهرت في أوروبا بعد تحررها من طغيان الكنيسة خرجت من الفكر العقلاني الذي يعتقد باستقلال العقل في إدراك المصالح الإنسانية في كلِّ أمرٍ دون الحاجة إلى الدين.

وبناءً على ذلك قرروا أن الإنسان له الحرية المطلقة في اعتقاداته وأعماله وسلوكياته وتصرّفاته، ودعوا للتحرر التام من كل الضوابط والمعايير والقيم والموازين وخاصة الدينية، ثم التصرف وفق ما يُمْلِيه قانون النفس ورغباتها من دون قيود.

وجعلوا حرية الإنسان وهواه، وعقله وفكره، وحكْم الأغلبية من الأصوات هو الحاكم على كلِّ شيءٍ بالصواب أو الخطأ، وهو القول الفصل في كل شئون حياة الناس العامة، سواءٌ عندهم عارض الشريعة الإلهية أم وافقها، كلَّما تغيرت أصوات الأغلبية تغيرت الأحكام والقيَم، وتبدّلت الثوابت بأخرى جديدة.

هذه المذاهب الجاهلية عندما تزعم أنه لا يوجد حقٌّ مطلقٌ إلا الحرية والتغير، فإنها تكْفُر بثوابت القرآن والسنة، وبأحكام الشريعة المحكمة التي أنزلها الله تعالى لتكون نورًا وهدى للناس إلى يوم القيامة، وما الشريعة إلّا الحق المبين الراسخ الذي لا يتغير ولا يتبدّل مهما تغير الزمان والمكان، قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ

ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [يونس: ١٥].

هذه المذاهب ما هي إلا أفكار ونظريات ماديّة شهوانية ابتدعها قوم لا يؤمنون بألوهية الخالق وعبودية المخلوق، ولا يؤمنون بيوم يُرجعون فيه إلى الله، ولا يُحرِّمون ما حرّم الله ورسوله، ولا يدِينون دين الحق، من اليهود والنصارى والشيوعيين، بُغيتهم أن يُخرجوا الناس من عبادة الله تعالى وحده باتّباع صراطه المستقيم إلى عبادة مفكّريهم ومنظّريهم، وإلى اتِّباع أهوائهم والسيْر على مناهجهم الضالة.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾ [إبراهيم: ٢-٣]، وقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [هود: ١٨- ١٩].

ومن لديْه أدنى معرفة بمعنى ألوهية الله وعبودية العبد ومعنى الإسلام لله يعرف اصطدام الليبرالية بالإسلام ومناقضتها له، فكيف لمسلم أن يقول: أنا حر، أفعل ما أريد، وأقول ما أريد، وأعتقد ما أريد، وأحكم بما أريد، وشريعة الله لا تلزمني؟! هذا ليس إسلامًا لله، بل هو الكفر البواح.

قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣].

إن إسلامنا لله يعني أن نخضع ونقاد ونستسلم لأمره، ونقبل شرعه ونتّبعه في حياتنا كلِّها، ونحكُم به ونحاكِم إليه، ونطيع رسوله ونحكِّمه في كل ما شجر بيننا، ولا يكون في

صدورنا حرج ولا ضيق تجاه أحكام الله ورسوله، بل هو التصديق والقبول والرضا والمحبة، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقال: ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٢-٣]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء: ٦٥].

أيّ جاهلية يعيشها الناس اليوم إذا كانت الحرية عندهم هي خروج المخلوق عن عبودية خالقه والتزام شرْعه، إلى عبودية نفسه وهواه وأعدى أعدائه (الشيطان)، والتزام شرعِ عبدٍ مثله، والعدل والمساواة عندهم هو الاعتداء على حق الله الخالص، وإعطاؤه لمخلوق من مخلوقاته، ومساواة الله بعبد من عبيده، وأما العِلْم فأرقى العلوم عندهم أن المخلوق غنيٌّ عن خالقه، ومحتاج لمخلوق مثله. بئست الحرية هذه! وبئس العدل عدلُهم! وبئس العلم علْمُهم!

الفصل الثالث

الديمقراطية نقيض الإسلام

الفصل الثالث

الديمقراطية نقيض الإسلام

لم يعُدِ الناس بحاجة إلى أن نعرِّف لهم الديمقراطية حسب ما جاء في المعاجم الانجليزية وغيرها، وحسب ما ورد في كتب القانون والسياسة؛ لأنهم أصبحوا يباشرونها بأنفسهم ويلمسونها عن قرب من خلال أشكالها المطبّقة في الواقع، بل إن التعرف عليها نظريًا من خلال الكتب سيكون أبعد عن فهم حقيقتها من التعرف عليها واقعيًّا.

إن واقع الأنظمة الديمقراطية السائدة في عالمنا اليوم يفسرها بأنها تعني حكم الشعب أو سلطة أو سيادة الشعب، يعني أن الشعب يحكم نفسه بنفسه، ويمارس سلطته بنفسه، فالشعب هو الذي له السلطة العليا المطلقة، سلطة الأمر والنهي، وحق التشريع المطلق حسب زعمهم.

ويختار أفراد الشعب عبر صناديق الانتخاب من يرضَوْنه ممثِّلًا ونائبًا عنهم في ممارسة السلطة التشريعية، ويفوِّضونهم لهذه المهمَّة معترفين لهم بحق التشريع نيابة عنهم، فيضعون لهم الدستور[(١)] وهو القانون الأساسي العام والقواعد الكلية، بعضه من شريعة الله وبعضه من عند أنفسهم، أو من القوانين المعمول بها سابقًا، ويَعرِضونه على الشعب للتصويت عليه، فإذا أقرَّه بأغلبيته أُعطيت له الشرعيَّة والسيادة العليا على كل ما سواه، والتزم الجميع بنصوصه، وحَنَوْا له رؤوسهم، وأقسموا على احترامه والتزامه.

والسلطة المخوَّلة بوضع الدستور هي أعلى سلطة تشريعية، وتسمى السلطة التأسيسية، والمجلس المنتخب لممارسة هذه السلطة يسمى البرلمان، أو المؤتمر الوطني، أو مجلس الأمة، أو

(١) الدستور: هو القانون الأساسي والحاكم في الدولة، وهو مجموعة القواعد والأحكام التي تحكم شكل الدولة، ونظام الحكم فيها، وسلطاتها (التشريعية، والتنفيذية، والقضائية)، وطريقة توزيع السلطات، وبيان اختصاصاتها، ومدى ارتباطها ببعضها، وكذلك بيان حقوق المواطنين وواجباتهم تجاه الدولة وسلطاتها العامة.

الجمعية التأسيسية، أو مجلس الشعب، أو مجلس النواب، أو مجلس المستشارين، أو مجلس العموم، أو المجلس التشريعي، أو الجمعية الوطنية، أو مؤتمر الشعب العام، أو مجلس الشورى.

وهناك سلطة أخرى تشريعية تتمتع بحق التشريع دون سلطة البرلمان، مهمتها وضع الأحكام والقوانين الفرعية الإدارية والمالية، وقانون العقوبات وغيرها، وتعديلها وإلغاؤها ومراقبة تنفيذها، وذلك في حدود ما يسمح به الدستور.

وهناك سلطات أخرى خارجة من الشعب أيضًا، وهي السلطة القضائية، والسلطة التنفيذية، السلطة القضائية مهمتها القضاء في كل ما يُعرض عليها وِفْقًا للأحكام والقوانين التي تصدرها السلطة التشريعية، والسلطة التنفيذية ومهمتها القيام بتنفيذ أحكام القضاء والمحافظة على النظام.

وبهذه الكيفية يحكم الشعب نفسه بنفسه لنفسه، بعضهم يشرِّع بغير إذن الله، وبعضهم يحكم بين الناس بشرعِ غير الله، وبعضهم يقوم بالتنفيذ والتطبيق.

الديمقراطية تطبيق عملي للعلمانية.

لابد للناس من نظامٍ يسيرون عليه في حياتهم، هذا النظام هو مجموعة قواعد وأحكام وقوانين تحكُم تصرّفاتهم، وتنظِّم معاملاتهم، وتحدِّد واجباتهم، وتضمَن حقوقهم، وقد شرَع الله عَزَّوَجَلَّ بعلمه وعدله وحكمته لعباده شريعة أغنتهم عن الرجوع إلى غيرها لتنظيم حياتهم، وقد فرض الله على عباده اتّباع شريعته، وتحكيمها في حياتهم كلِّها، وحرّم عليهم الخروج عنها، أو تشريع ما يخالفها، أو الرجوع إلى غيرها في كبير أو صغير من شئون حياتهم، فآمن بها فريق من عباده وارتضوها لأنفسهم دينًا ومنهجًا ونظامًا لحياتهم كلِّها، واتخذوها مصدرًا لأحكامهم وقوانينهم، ولم يبغوا غيرها بديلًا، فعاشوا في ظلها أحرارًا أعزَّاء شرفاء حياةً كريمةً شهد بها العدو قبل الصديق، وكفر بها فريق من عباده، ورفضوها ولم يرضوا بها منهجًا لحياتهم،

واتخذوا من زُبالة أذهان البشر وأفكارهم وأهوائهم بديلًا عنها، فعاشوا عبيدًا يعبُد بعضُهم بعضًا أذلاء تُعساء معيشة ظنكًا، لا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون.

فالعلمانية التي قامت على رفض تحكيم شريعة الله، والفصل بين دين الله عَزَّوَجَلَّ الذي شرَعه لعباده والحياة العامة للمجتمع بجوانبها المختلفة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية وغيرها، احتاجت إلى نظامٍ بديلٍ عن الإسلام لتنظيم حياة الناس، فكانت الديمقراطية هي النظام البديل المرتضى، وأعْطت الشعب ما كان حقًّا خالصًا لله في دين الإسلام، فصار الشعب هو صاحب الحقِّ في السلطة والسيادة والتشريع المطلق، فالقرارات والأحكام والأوامر التي يُقِرُّها الشعب، ويختارها بأغلبيته هي الشرع المتّبع، والحكم السائد، والسلطان النافذ، بديلًا عن شرع الله وحُكْمه وسلطانه، وجعلوا حكْم أغلبية الشعب لا معقِّب له، وسيادة الشعب فوق سيادة الشريعة المطهّرة، فأحكام الله غير ملزِمة عندهم ولا سلطان لها إلا بعد عرضها على صاحب السيادة (الشعب)، فإذا أقرّها صارت قانونًا ملزِمًا كسائر القوانين الأخرى (في نطاق ما يسمح به الدستور الأعلى عندهم)، وكلُّ حكمٍ من أحكام الله لم يوافق عليه المشرّعون، ولم يصوِّت عليه الشعب بأغلبية هو حكمٌ مردودٌ لا شرعية له، سبحان الله وتعالى عما يشركون علوًّا كبيرًا.

فالديمقراطية ما هي إلا تطبيق عملي لمبادئ العلمانية الأساسية، وهذا ملاحظٌ في جميع النظم الديمقراطية، كلُّها لا تقوم على أصل الإسلام لله وحده وإفراده في الحكْم والسيادة والتشريع والطاعة المطلقة والاتّباع، بل إنها تعطي الشعب أو من ينوب عنه حق السيادة والتشريع من دون الله، وتجعلُهم شركاء لله في الانقياد والطاعة والاتّباع، يُحلِّون ويحرِّمون ما شاءوا غير ملتزمين بما أحلّه الله وحرّمه، ويشرّعون الأحكام والقوانين التي يريدون من غير رجوعٍ إلى شريعة الله، وما شرعوه وأقرَّته الأغلبية هو الشرع المتّبع دون شرع الله، له حق الطاعة والاتّباع كما لشرع الله وأعظم، به يحكُمون، وإليه يتحاكمون معرضين عمّا أنزل الله.

هذه السيادة التي تمنحها الديمقراطية للشعب سيادةٌ مطلقةٌ، لا تعترف بأي سيادة فوقها أو بجانبها، وإن كانت سيادة الله، فهي غير مقيّدةٍ ولا محدودةٍ بحكم الله وسيادته، وحقُّ التشريع المطلق ليس خالصًا لله وإنما هو لغيره، ولهذا تجد أن ما شرعه الله عَزَّوَجَلَّ لا سلطان ولا شرعية له عندهم، ولا أحقية له في الحكم إلا بموافقة صاحب السيادة من الشعب ورئيسه ونوابه، الذي يمنحه بإقراره له حق الإلزام، ويعطيه صفة الشرعية، فسيادة الشعب فوق حكم الله وشرعه. تعالى الله وتقدّس وتعظَّم وتنزَّه عن شرك الديمقراطيين وأمثالهم من المشركين.

هذا الأمر تجده في جميع النظم الديمقراطية من غير استثناء، حتى الأنظمة التي تزعم أن الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيس للتشريع، فهي أولًا لا تعتبِر شريعة الله ملزِمة إلا بعد أن يقرَّها المشرِّع، فيكتسب ما أخذه المشرِّع من شريعة الله صفة الشرعية بعد صدوره من صاحب السلطة لا قبْل ذلك، وثانيًا هي لا تعتبر الشريعة المصدر الوحيد للتشريع، وإنما تعتبرها المصدر الأول ومعه مصادر أخرى، ولا تقوم على توحيد مصدر التلقي والتشريع، بل تعترف بالأحكام والقوانين والأعراف الدولية، وما تشرِّعه المنظمات العالمية، وتجعل منها مصدرًا لاستنباط الأحكام ووضع القوانين شريكًا لشريعة الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا اعتراف بحق التشريع المطلق لغير الله لا يستقيم مع تحكيم شريعة الله، ولو أنهم حكَّموا الإسلام عقيدةً وشريعةً لرفضوا كل شرع يخالف شرع الله، وكفروا به وبمن شرعه، قال الله تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ [الأعراف: ٣]، وقال: ﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨﴾ [الجاثية: ١٨]، وقال: ﴿ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٥٠﴾ [المائدة: ٥٠]، فكل حكم أو تشريع لم يأذن به الله هو حكم الجاهلية، وموقف الإسلام منه واضح، ولا يمكن بحال من الأحوال الجمع بين حكم الله وحكم الجاهلية، أو شريعة الله وأهواء البشر وتشريعاتهم، فمَن قَبِل حكمًا واحدًا من غير الله بديلًا عن حكم الله فقد أشرك بالله، ودخل في دين الجاهلية، وخرج عن دين الإسلام، ولو استمر

يأخذ باقي الأحكام من شريعة الله، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [الأنعام:١٢١]، فالذين يبدِّلون أحكام الله، ولا يلتزمون بشريعته هم عند الله شياطين، والذين يسمعون لهم ويطيعونهم في تبديلهم وتشريعهم هم عند الله أولياء الشياطين، والمسلم لو أطاع أولياء الشياطين فيما توحيه إليهم شياطينهم من تغيير أحكام الله وتشريع ما لم يأذن به صار مشركًا مثلهم وليًّا من أولياء الشياطين؛ لأنه فعل فِعل المشركين، وهو قبول التشريع من غير الله، وطاعة غيره في تحليل حرامه، وهذا شركٌ بالله وعبادةٌ لغيره يناقض الإسلام ويهدمه من أساسه، وإن كانت الطاعة والاتّباع والموافقة في تبديل حكم واحد (كتحليل الميتة).

هذا هو دين الله، فهل يعرف هذا العلمانيون والديمقراطيون وأتباعهم؟!

إن واقع النظم الديمقراطية في الدول التي تزعم أن الإسلام دينها والقرآن شريعتها يشهد أنها لا تؤمن بأن حق الأمر والسيادة والتشريع المطلق خالصٌ لله وحده، أي لا تؤمن بأن الربوبية بجميع خصائصها لله وحده، ولا تؤمن بوجوب اتّباع شريعة الله في الحياة كلِّها، وتحريم مخالفتها، والخروج عنها، سواء من قِبل أفراد الشعب أو حُكّامه ورؤسائه وقُضاته، ولا تتّبع ما شرعه الله واقعًا وعملًا، ولا تتقيّد به ولا تحتكم إليه إلا في جزء يسير من الحياة العامة، واتّباعها شرع الله في هذا الجزء اليسير جاء بعد الاستفتاء عليه وموافقة صاحب السلطة والسيادة العليا (الشعب)، الذي صيَّره قانونًا ملزِمًا وحُكْمًا له شرعيته وقداسته كغيره من القوانين، أما الجزء الآخر من الحياة وهو الجزء الأعظم فلا دخل لدين الله في تنظيمه، وإنما تحكمه القوانين الوضعية وتشريعات مجالس التشريع وقرارات الملك أو الرئيس. وهي بذلك لا تؤمن بالله وحده حكَمًا ولا سيِّدًا ولا مشرِّعًا ولا معبودًا مطاعًا، وإنما تعترف لله بقدر ما تعترف به لغيره، أو أقل مما تعترف به لغيره، فالحكم والسيادة والتشريع والاتّباع والطاعة لغيره أكثر مما له، وعلى هذا فالديمقراطية كفر بربوبية الله وألوهيته وأسمائه وصفاته وكتابه ورسوله،

وهي فرعٌ عن العلمانية، ووسيلتها لتحقيق أهدافها، وتطبيقٌ عملي لها، فالعلمانية هي الفكرة والعقيدة، والديمقراطية هي العمل والتطبيق.

الديمقراطية دين ولكنها ليست من عند الله.

كثيرٌ من الناس يستنكرون الجمع بين الديمقراطية والعلمانية، ويرون أن العلمانية تناقض الإسلام بينما الديمقراطية لا تخالفه، ولكن حقيقة الديمقراطية والنماذج التطبيقية لها في الواقع يشهد بخلاف ذلك، فالديمقراطية ليست من دين الله في شيءٍ، بل هي دين مناقضٌ تمامًا لدين الله، فدين الله هو ما شرعه طريقًا ومنهجًا لعباده، وبعث به رسله، وفرَض على الناس جميعًا سلوكه واتّباعه، ولم يأذن لأحدٍ أن يخرج عنه أو يسلك غيره، فهو الطريق الوحيد الذي به تتحقق عبودية الله، والطريق الوحيد الموصل إلى رضا الله، قال الله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١﴾ [إبراهيم: ١]، فمن اختار أن يعبد الله عليه أن يسلك طريق العبودية الذي شرعه الله، وعلامتُه أن يوحد الله في عبادته، وأن يعبده بطاعة رسله واتّباع شريعته، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦٤﴾ [الزخرف: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١﴾ [يس: ٦٠-٦١]، وقال: ﴿ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٦٣﴾ [الأنعام: ١٦١-١٦٣]، هذا هو دينه الذي ارتضاه للعالمين ووصى به رسله أجمعين، قال الله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ

وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى: ١٣]، فالله عَزَّوَجَلَّ أمرنا جميعًا أن نسير على المنهج والطريق الذي شرعه لنا، وألّا نحيد عنه يُمنة ولا يُسرة، وأن نقيم دينه كما أقامه رسله من قبل، ونهانا أن نتخذ لأنفسنا منهجًا غير منهجه، ونتّبع شرعًا غير شرعه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾﴾ [فصلت: ٦]، وقال: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [هود: ١١٢-١١٣]، فالاستقامة لا تحصل إلا باتّباع ما شرع الله، وذلك قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾، دون مجاوزة حدود الأمر والنهي والحلال والحرام بزيادة أو نقصان، وذلك قوله: ﴿وَلَا تَطْغَوْاْۚ﴾، مع الحذر الشديد من الالتفات إلى الذين لا يتّبعون ما شرع الله من الكفار والمشركين، أو الميل إليهم أو الرضا بأعمالهم وطريقتهم، وذلك قوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، وعاقبة الانحراف عن الصراط المستقيم ومجاوزة حدود الشرع والميل إلى الكفار والرضى بأعمالهم: ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾، كما قال الله في آية أخرى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية: ١٨-١٩].

فالإسلام منهجٌ للحياة كلِّها، حياة الفرد الخاصة والحياة العامة للمجتمع والأمة، ولابد من اتّباعه وحده في الحياة كلِّها، ولا يكفي الاعتقاد بصحته والانتساب إليه، بل لابد من الإذعان لحكمه والتسليم له، وهذا هو معنى إسلام الوجه لله، أي إخلاص الانقياد والاستسلام لله بقبول شرعه والتسليم له وتحكيمه، ورفض ما خالفه، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥]، فلابد من اتّباع شرع الله وترك ورفض اتّباع غيره ليكون الدين كلُّه

لله، قال الله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال الله تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٣]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الشورى: ١٥].

أما الجمع بين اتّباع شرع الله وشرع غيره فليس دينًا لله، فمن اتّبع في حياته شرعًا لم يأذن به الله ولو في جانبٍ واحدٍ من جوانب الحياة، في الاقتصاد، أو السياسة، أو الاجتماع، أو الثقافة والتربية والتعليم، أو الصحة، أو الرياضة، أو غيرها؛ فإنما يتَّبع الهوى، ويسلك سُبل الضلالة، ويخرج عن الهدى، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٦]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [البقرة:١٢٠]، وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الرعد: ٣٧]، وكل ما خالف شريعة الله من مذاهب الكفار ومناهجهم وأنظمتهم وتشريعاتهم فهي أهواؤهم التي أُمرنا أن نجتنبها، ولا نتّبع شيئًا منها، قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الجاثية: ١٨]. فإما اتّباع شريعة الله في الحياة كلِّها وهذا هو دين الله، وإما اتّباع أهواء الذين لا يعلمون وهذا ليس دينًا لله.

فالجمع بين شرع الله وشرع غيره هو الشرك بعينه، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ

أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ [النساء: ٦٠-٦٢].

ولا يفقه هذا إلا من عرف الإسلام على حقيقته، ولم يغتر بالكثرة الهائلة التي تنتسب للإسلام وتتّبع غيره.

معنى الدين في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢]، أي في حكم الله، فجلد الزاني والزانية مائة جلدة هو حكم الله وهو دينه، وإقامة هذا الحد هو دين لله.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [يوسف: ٧٦]، دين الملك هو حكمه وسلطانه وقضاؤه.

فالقوانين التي تعاقب السارق والزاني بالسجن هي دينٌ غير دينِ الله، والقوانين التي تبيح للنساء التبرج والسفور هي دينٌ غير دينِ الله.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢-٣]، وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٤٦]، الدين هنا معناه الطاعة والتسليم والانقياد والعبادة.

وفي الحديث: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ لِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ: «يَا عَمُّ، أُرِيدُهُمْ عَلَى كَلِمَةٍ تَدِينُ لَهُمُ الْعَرَبُ، وَيُؤَدِّي إِلَيْهِمُ الْعَجَمُ الْجِزْيَةَ»(١)، أي تطيع وتخضع لهم العرب.

(١) رواه أحمد، وابن حبّان، والترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢﴾ [البقرة: ١٣٢]، أي المِلّة أو الطريقة أو المنهج أو الشريعة، وكذلك قوله: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ٢٦﴾ [غافر: ٢٦].

وفي الحديث: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا قَالَتْ: «كَانَتْ قُرَيْشٌ وَمَنْ دَانَ دِينَهَا يَقِفُونَ بِالْمُزْدَلِفَةِ...»(١)، أي من اتّبع طريقتها ومنهجها.

فكلُّ ما شرعه الله وبلَّغنا إياه رسوله من العقائد والشعائر والشرائع بمختلف أنواعها التي تنظم حياة المسلمين الخاصة والعامة، وتضبط معاملاتهم وعلاقتهم بغيرهم في السلم والحرب، هو الدين الذي يجب علينا إقامته والاستسلام والانقياد به لله وحده، وما خالفه فليس دينًا لله، ولا يرضاه الله ولا يقبله، قال الله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣]، فالاستسلام والانقياد لله وحده بما شرع هو الإسلام، ولا يكون الرجل مسلمًا حتى يعتقد أن كلَّ ما خالف الإسلام باطل.

فكلُّ دينٍ لم يقم على الاستسلام لله وحده، وعبادته وحده وترك عبادة ما سواه، وقبول شرعه كلِّه والتسليم له ورفض ما خالفه، هو دين جاهلي مناقض للإسلام، واتّباعه والرضا به كفرٌ وضلالٌ.

فمتى اتخذ الناس شركاء يشرّعون لهم من الدين (أي من الأحكام، والأوامر والنواهي، والحلال والحرام، والطريقة والمنهج والنظام) ما لم يأذن به الله، فهم ليسوا في دين الله، وإن زعموا أنهم في دينه، وأنهم أولياؤه وأحباؤه، قال الله عَزَّوَجَلَّ عن المشركين الذين كانوا يزعمون أنهم على ملة إبراهيم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، وأنهم أولياء الله: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا

(١) متفق عليه.

لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [الشورى: ٢١]، وقال الله سبحانه عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين يزعمون أنهم على ملة إبراهيمعَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، وأنهم أولياء الله وأحباؤه: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٢٩-٣١].

الذين يتخذون الديمقراطية منهجًا ونظامًا للحياة، ويزعمون أنها لا تناقض دين الله هم في الحقيقة لا يعرفون كيف يكون الدين خالصًا لله، ولا يعرفون ما يميّز دين الله عن غيره من الضلالات والجهالات التي يحسبها الناس دينًا لله، وهي الكفر بعينه.

هل يستطيع أن يثبت دعاة الديمقراطية أنها مما شرعه الله، وأنزل بها سلطانَه، وأذن فيها لعباده؟

فهل أذن الله عَزَّوَجَلَّ لأحدٍ أن يشرِّع ويحكُم من عنده دون أن يرجع إلى شريعة الله؟

قال الله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [الشورى: ٢١].

هل أذن الله لأحدٍ أن يحلّل أو يحرّم من عند نفسه؟

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يونس: ٥٩]، وقال: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [النحل: ١١٦].

هل أذن الله لأحدٍ أن يغيّر شيئًا من أحكامه؟

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [يونس: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأسراء: ٧٣-٧٥].

هل أذن الله لأحدٍ أن يخرج عن حدوده ويخالف شريعته؟

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [النساء: ١٣-١٤]، وقال: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقال: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [آل عمران: ٣١-٣٢].

هل أذن الله لأحدٍ أن يحكم بغير ما أنزله؟ أو يتحاكم لغير حكْمه وحكْم رسوله؟

قال الله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة: ٤٩-٥٠].

كلُّ هذا لم يأذن به الله لأحد، بل هو من الكفر بالله وبدينه وأنبيائه، وهذا هو واقع الديمقراطية، فكيف يقال بعدَ هذا أن الديمقراطية لا تخالف دين الله؟!

أم أن ديمقراطيتهم إسلامية؛ لأن من يعمل بها ينتسب للإسلام، وديمقراطية الغرب جاهلية؛ لأنهم لا ينتسبون للإسلام؟!!

فما هو الفارق بين الديمقراطية في الدول العربية هذه التي يدافعون عنها والديمقراطية الغربية في أمريكيا وفرنسا وبريطانيا؟

أليس الشعب هو مصدر السلطة وصاحب السيادة العليا في ديمقراطيتهم كما هو الحال في الديمقراطية الأم؟

أليس رأي الأغلبية هو الحكَم في كل الأمور حتى في العمل بشرع الله، ولا تكون الشريعة نافذة إلا بعد رضاهم؟

ألا يختار الشعب من ينوبون عنه، ويمنح من اختارهم حق السلطة والتشريع المطلق؛ ليضعوا له الدستور، ويحدِّدوا له الدين (النظام والشرع المتّبع)، ومِن حقهم أن يشرِّعوا ما يخالف شريعة الله؟

أم غرَّهم أنهم يحملون اسم الإسلام، ومهما فعلوا فهم مسلمون؟!!

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ۝٤٣﴾ [القمر:٤٣]، وقال: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨٠ بَلَىٰ ۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٨١﴾ [البقرة: ٨٠-٨١]، وقال: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝١٢٣ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ۝١٢٤ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ۝١٢٥ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ۝١٢٦﴾ [النساء: ١٢٣-١٢٦].

أم لعلّهم يظنون أن تطبيقَهم للديمقراطية عملٌ بمبدأ الشورى التي شرعها الله للمسلمين، شتَّان بين الشورى التي هي من شرع الله والديمقراطية التي هي من وحي الشياطين، إن الفرق بينهما كالفرق بين الإسلام والكفر.

فالشورى جزءٌ من الإسلام القائم على إخلاص العبودية لله في الحياة كلِّها، بقبول كلِّ ما شرعه، والتسليم له، وتحكيمه، واتّباعه في جميع مجالات الحياة، وعدم الاعتراف لأحدٍ غير الله بحق الأمر والحكم والتشريع إلا بإذنه. أما الديمقراطية فليست من الإسلام في شيءٍ، فهي قائمة على الكفر بربوبية الله وحقِّه وحده في الأمر والحكم والسيادة والسلطان والتشريع المطلق، والكفر بألوهية الله وحقِّه وحده في الانقياد والتسليم لشرعه وتحكيمه على ما سواه.

والعمل بالشورى عملٌ بشرع الله، وطاعةٌ له، واقتداءٌ برسوله، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الشورى:٣٨]، وقال تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. أما الديمقراطية فما أنزل الله بها من سلطان، بل هي مما حرّمه الله، ولم يأذن به لأحدٍ أبدًا، والعمل بها ليس حرامًا فقط، بل هو شركٌ صريحٌ بالله، لا يبقى معه ذرةٌ من إيمان.

والشورى لا تتجاوز حدود الشرع، ومحلّها في الأمور المباحة التي ليس فيها نص من كتاب الله أو سنة رسوله، فالمسلمون لا يتقدمون بقول ولا رأي على قول الله ورسوله، وتشاوُر المسلمين مع بعضهم داخل إطار تشريع الله، ولا يمكن أن يقبل مسلمٌ أن يؤخذ رأيه في قبول شرع الله أو رفضه، فيكون رأيه حكَمًا على شريعة الله، ومن رضي بذلك فقد كفر ولو اختار الشريعة، فشرعُ الله يستمد سلطانه وشرعيته وقداسته من الله لا من غيره، أما الديمقراطية فلا تتقيد بحدود الشرع، ولا تعتبره ملزِمًا أصلًا حتى يُعرض على صاحب السيادة (الشعب)، ويعطي رأيه، فإذا أقرَّه بأغلبيته صار ملزِمًا وشرعيًّا، وإبداء الرأي والتشاور والتشريع والتصويت في الديمقراطية مطلق غير مقيّد، ولا محدود بحدود الشرع، فهم

يتشاورون صراحةً فيما حكَم الله ورسوله فيه بنصوص قطعية صريحة، يتشاورون هل يعملون بما شرع الله أم يشرِّعون لأنفسهم من دونه، ويرون لأنفسهم الحقَّ المطلق في ذلك من غير حياء ولا حرج!! تعالى الله عن إفكهم وشركهم.

لا يكفي إذن في إعطاء الصبغة الشرعية للديمقراطية أن نغيِّر اسمها ونصِفها بأنها شورى؛ لأننا بذلك لا نخدع إلا أنفسنا، فالشورى في الإسلام ليست إلا جزءًا من شريعة الله، لا يُعمل بها إلا في نطاق ما يسمح به الشرع، أما الديمقراطية فليست من دين الله في شيء، ولا يمكن أن تجتمع معه في شيء، فلو حكّمنا الإسلام في الديمقراطية لرفظناها بالكلِّية اسمًا ومعنى، فالمسلمون أقوياء أعزاء أغنياء بدينهم لا يحتاجون معه إلى شيء.

إن الديمقراطية المطبَّقة في الواقع، بكافة صورها في جميع أنحاء العالم، عند العرب أو عند الغرب ليست من دين الله في شيء، بل هي دينٌ جاهليٌ أساسه الشرك بالله، فلا يخلو نظامٌ ديمقراطيٌّ من مجلسٍ تشريعي مهمته تشريع الأحكام وإصدار القوانين لتنظيم شئون البلاد الداخلية والخارجية، وتسيير الحياة العامة، وما صدر عنه وأقرّه الشعب بأغلبيته هو الشرع المتّبع، والحكم السائد، والقانون الملزِم، سواء وافق شرع الله أم خالفه، فالحلال ما أحلّه، والحرام ما حرّمه، والواجب ما أوجبه، والنظام ما شرعه، فلا يُجَرَّم فعلٌ إلا بقانون، ولا يُعاقب عليه إلا بقانون، ولا سلطان ولا شرعية لشرع الله المِلك المتعال، سبحانه عمَّا يصفون.

ومن المعلوم كما أسلفنا أن الإشراك بالله في حكمه كالإشراك به في عبادته، كلاهما شركٌ في ربوبية وألوهية الله لا فرق بينهما ألبتة، فالذي يتّبع نظامًا غير نظام الله، وتشريعًا غير تشريع الله، كالذي يدعو ويستغيث ويذبح ويركع ويسجد لغير الله، كلاهما مشركٌ بالله لا فرق بينهما.

والأديان الجاهلية تختلف أشكالها من وقت لآخر ومن مكان لآخر، ولكن يجمعها الشرك والكفر بالله، فهي تقوم على تعدد الآلهة المعبودة من دون الله، وتعدد الأرباب المطاعة في معصية الله، ومن المحال اجتماعها مع الإسلام.

ومن هنا يتبين لنا زيف الديمقراطية، ويتبين جهل الذين يحاولون دمجها في الإسلام، فالديمقراطية حقيقةً دينٌ جاهلي يناقض الإسلام بالكلِّية، ولا يمكن الجمع بينهما ألبتة، فمن اختار الإسلام لابد أن يرفض الديمقراطية ويكفر بها ويجتنبها.

هل يمكن الوصول عبر الديمقراطية لتحكيم شريعة الله؟

لو تأملنا كيف أقام رسول الله ﷺ دين الله في الأرض لعرفنا الإسلام على حقيقته، وعرفنا الطريق لإقامته في أنفسنا وفي مجتمعنا، فالرسول ﷺ لم يسلك في دعوته وإقامته لدين الله إلا ما أمره الله به، فكان متّبعًا أمر الله في شأنه كلِّه، قال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [يونس: ١٠٩]، وقال سبحانه: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [هود: ١٢]، وذلك أن كفار مكة لما قالوا: ائت بقرآن غير هذا ليس فيه سَبُّ آلهتنا حتى نتّبعك، همَّ النبي ﷺ أن يدَع سبّ آلهتهم ظاهرًا رجاء أن يتّبعوه، فأنزل الله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ... ﴾ الآية، أي تاركٌ تبليغ بعض ما أنزله الله عليك وأمرك بتبليغه مما يشقُّ عليهم سماعه كسَبِّ آلهتهم(١).

وَقَدْ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ قُرَيْشًا دَعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَنْ يُعْطُوهُ مَالًا فَيَكُونُ أَغْنَى رَجُلٍ بِمَكَّةَ، وَيُزَوِّجُونَهُ مَا أَرَادَ مِنَ النِّسَاءِ، وَيَطَأُونَ(٢) عَقِبَهُ، فَقَالُوا: هَذَا لَكَ عِنْدَنَا يَا مُحَمَّدُ، وَكُفَّ عَنْ شَتْمِ آلِهَتِنَا، وَلَا تَذْكُرْهَا بِشَرٍّ؛ فَإِنْ بَغَضْتَ فَإِنَّا نَعْرِضُ عَلَيْكَ خَصْلَةً وَاحِدَةً، وَلَكَ فِيهَا صَلَاحٌ، قَالُوا: «وَمَا هِيَ؟» قَالُوا: تَعْبُدُ إِلَهَنَا سَنَةً اللَّاتَ وَالْعُزَّى، وَنَعْبُدُ إِلَهَكَ سَنَةً، قَالَ: «حَتَّى أَنْظُرَ مَا يَأْتِينِي مِنْ رَبِّي»، فَجَاءَ الْوَحْيُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الكافرون: ١-٢]

---

(١) انظر تفسير البغوي، وزاد المسير لابن الجوزي.

(٢) يطأون عقبه: أي يكون ذا سلطان عليهم، يتّبعونه ويمشون وراءه.

السُّورَةَ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ۝٦٤ ﴾ [الزمر:٦٤][1].

ولا سبيل للمسلم إلا أن يتّبع ما كان عليه رسول الله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٠٨ ﴾ [يوسف:١٠٨]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝١٥٨ ﴾ [الأعراف:١٥٨].

فالدعوة إلى الإسلام تبدأ بالدعوة إلى التوحيد أوّلًا، فهو أصل الإسلام وقاعدته، ثم إذا وُجدت الجماعة التي يتحقق فيها صفة الإسلام لرب العالمين، وهي التي تؤمن بأنه لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ اعتقادًا وقولًا وعملًا، وتقيم حياتها على هذا الأساس، حينها يقوم دين الله في الأرض، وتبدأ هذه الجماعة بتطبيق الإسلام عقيدةً وشريعةً في حياتها كلِّها.

البناء - كما هو معروف - يبدأ بتثبيت الأصل والأساس، وعلى هذا الأصل يقوم البناء بأكمله، كذلك الإسلام لا يقوم إلا على أصلٍ ثابتٍ، فشرائع الدين كلِّها قائمة على أساسٍ واحدٍ هو توحيد الله بالعبادة، المتمثل في إفراده بالحب، والخوف، والرجاء، والولاء، والتّوجُّه، والقصد، والانقياد، والتسليم، وقبول التشريع، والاحتكام إليه، وتوحيد مصدر التلقي في الدين كلِّه بمتابعة الرسول ﷺ، وتحكيمه في كلِّ خلاف، ولا يمكن أبدًا أن نقيم شريعة الله إلا على هذا الأساس، فالصلاة والصوم والزكاة والحج كلها لا تقوم إلا على هذا الأساس، فمن أدى الصلاة، وصام رمضان، وآتى الزكاة، وحجّ البيت وهو لم يوحد الله بالعبادة كأنه ما صلّى ولا صام ولا زكّى ولا حجّ، وهكذا سائر أحكام الشريعة.

فلننظر أولًا أين نحن من الإسلام؟ ما الذي حقَّقناه منه؟ وما الذي ينقصنا؟

بعدها سنعرف ما هي أول خطوة يجب أن نخطوها للرجوع إلى الإسلام، هذا إذا كنّا نريد أن نرجع إلى الإسلام الذي ارتضاه الله لنا دينًا.

---

(١) رواه الطبراني في الصغير، وابن جرير وابن أبي حاتم في التفسير.

وقد عرفنا حقيقة الإسلام وأصله الذي يجب أن يكون متحقّقًا في حياتنا كلِّها عقيدةً وقولًا وعملًا لنستحق وصف المسلمين، وعرفنا مدى بُعد العلمانية عن الإسلام، وأنه لا يمكن أن يجتمعا في شخصٍ واحدٍ، ولا في نظامٍ واحدٍ أبدًا، بل إما الإسلام وإما العلمانية، وعرفنا أن الديمقراطية فرع عن العلمانية، وهي التطبيق العملي لها، والوسيلة لتحقيقها، فعلى العلماني أن يكفر أوّلًا بدين العلمانية إن أراد أن يدين بالإسلام، وعلى الديمقراطي أن يكفر بدين الديمقراطية إن أراد أن يدين بالإسلام، فإنَّ كلًّا منهما يمثل قِمَّة الطغيان على الله بمجاوزة حد العبودية، والتعدي على حق الربوبية والألوهية، وهذا هو معنى الطاغوت الذي يجب أن نكفُر به ابتداءً قبل أن ندّعي أننا مؤمنون بأنه لا إله إلا الله.

فالحكم والتشريع والسلطان والسيادة في نظام الديمقراطية حقٌّ مطلقٌ للشعب أو نوَّابه، فالشعب مصدر السلطة والتشريع، وهو الحَكَم الذي يُرجع إليه في مسألة قبول أو رفض الأحكام والتشريعات، سواءٌ كانت من عند الله أو من عند غيره، وحُكْمُه الملزِمُ، وقوله الفصلُ، ورأيهُ النافذ، لا معقِّب له من بعده، فأي طغيان أعظم من هذا؟! إن لم يكن هذا تجاوزًا لحدِّ العبودية لله، وتعدّيًا صريحًا على حق الربوبية والألوهية، فما هو إذًا؟ وإن لم يكن هذا هو حقيقة الطاغوت، فما هو إذًا؟ ومن لم يعرف أن ادّعاء حق السلطة والسيادة والتشريع من دون الله هو قمّة الطغيان على الله، فما عرف الله، ولا عرف حقيقة نفسه، ومن لم يعرف أن عليه أن يكفر بهذا اعتقادًا وقولًا وعملًا قبل أن يدَّعي الإيمان بالله، فما عرف كيف يعبد الله.

إن اعتناق الفرد لفكرة الديمقراطية، أو الرضا بها لحظة واحدة - تحت أي مبرر - يعني دخوله في دين الطاغوت، وقيام الديمقراطية في بلد ما يدل على جهل الناس بالإسلام، وأنهم لا يؤمنون بأنه لا إله إلا الله، وإن قالوها بألسنتهم وحسبوا أنهم مسلمون، فالإيمان بلا إله إلا الله هو الكفر بالطاغوت والإيمان بالله وحده اعتقادًا وقولًا وعملًا، أي الكفرُ بكلِّ من ادّعى شيئًا من خصائص الربوبية أو الألوهية، وإفراد الله بجميع خصائص الربوبية والألوهية.

ولهذا قلنا يجب أن نعرف من البداية أين نحن من الإسلام؟ ما الذي حقّقناه منه؟ وما الذي ينقصنا؟

فإذا كان ما ينقص الناس اليوم هو الإيمان بكلمة التوحيد التي يرددونها ولا يعرفون معناها، فمعنى هذا أنه ينقصهم الأصل الذي لا يصح الإسلام بدونه، ولا يقوم إلا عليه، ولا يُقبل ما بعده إلا بشرط الإيمان به، فعليهم أن يؤمنوا بهذا الأصل أوّلًا اعتقادًا وقولًا وعملًا ليعودوا إلى الإسلام من جديد، عليهم أن يكفروا بالطاغوت، ويؤمنوا بالله وحده، ومن الكفر بالطاغوت الكفر بالديمقراطية التي تجعل السيادة والسلطة والتشريع المطلق لغير الله، والبراءة منها، ومن أتباعها ومُواليها، ومن الإيمان بالله الإيمان بأن السيادة العليا والتشريع المطلق حقٌّ خالص لله، واتخاذه وحده حكَمًا، وإفراده بالخضوع والانقياد وقبول التشريع والتسليم له والاحتكام إليه، والموالاة والمعاداة على ذلك، هذه أوَّل خطوة في طريق الرجوع إلى الإسلام، وإعادة بنائه من جديد، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر: ١٧– ١٨]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزمر: ٥٣–٥٥].

وبعد أن يكفر الناس بالطاغوت ويؤمنوا بالله وحده، ويؤمنوا برسوله وما جاء به، يكونون قد أعلنوا إسلامهم لله، فلا يحتاجون حينها إلى من يقول لهم عليكم أن تحكِّموا شريعة الله، فهذا قد عرفوه من معرفتهم الإسلام واختيارهم له، فلن يكون هناك ترددٌ في اختيار شريعة الله ورفض ما خالفها؛ لأنهم قد أسلموا قولًا واعتقادًا وعملًا.

هذا هو الطريق الوحيد لتحكيم شرع الله، فلنتّبعه إن أردنا الإسلام، وإلا فاتركوا الإسلام لأهله، واتركوا تحكيم الشريعة للمسلمين الذين يؤمنون بأن تحكيمها هو حقيقة الإسلام لله.

أما من أراد أن يصل إلى تحكيم الشريعة عن طريق تطبيق مبدأ الديمقراطية، ويريد أن يجعل لشريعة الله المشروعية من خلال العملية الديمقراطية، فيَعرض شرع الله على التصويت والاستفتاء، ويضعه في ميزان الانتخاب بينه وبين حكم الجاهلية، فإن فاز شرع الله بالأغلبية كان الحكم به في حدود ما تسمح به الديمقراطية، وإن فاز حكم الجاهلية بالأغلبية كان الحكم به دون حكم الله، والسيادة له فوق شرع الله.. من أراد أن يصل إلى تحكيم الشريعة بهذه الطريقة فإنما يريد الكفر لا الإسلام؛ لأن الاحتكام إلى رأي الأغلبية في تطبيق الشريعة احتكام إلى الطاغوت، فلو أن الشعب كلَّه اختار الشريعة بهذه الطريقة لما كان هذا إسلامًا لله، بل هو خضوع واستسلام لإرادة الأكثرية؛ لأن اختيار الشريعة تمَّ بناءً على تحكيم الشعب صاحب السلطة والسيادة من دون الله (الطاغوت)، فهو الذي قرَّر العمل بها، فلم يكتسب شرع الله عندهم الشرعية والسلطان وحق الإلزام إلا بعد الرجوع لرأي الشعب، ولو أن الأغلبية اختارت شرع غير الله لكان الحكم والسلطان له فوق شرع الله، فرأي الأغلبية هو الحكَم على شرع الله، والمشروعية في النهاية بيد الأكثرية تمنحها لما اختارته، فهل هذا إسلام لله؟! وهل بعد هذا الكفر كفر؟ نعوذ بالله من الخذلان.

إن مثَل من يريد تطبيق الشريعة عن طريق الديمقراطية كمثَلِ من يريد التقرب إلى الله باتخاذ شفعاء ووسطاء وأولياء من خلقه يتقرب بعبادتهم إلى الله، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣]، هؤلاء قصدهم ونيتهم التقرّب إلى الله كما هو قصد من يريد تطبيق الشريعة، ولكنهم أحدثوا أمرًا من عند أنفسهم لم يأذن به الله، هو في الحقيقة شرك بالله يُبعد عن الله غاية الإبعاد، تمامًا كمن اتخذ من

الديمقراطية - وهي كفر وشرك بالله - وسيلةً لتحكيم الشريعة، فماذا قال الله عنهم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾.

إن مثَلهم أيضًا مثَل أولئك الذين يزعمون أنهم مسلمون، ومع هذا فهم لا يكفرون بالطاغوت، بل يؤمنون به ويتحاكمون إليه، قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ [النساء: ٦٠-٦٢]، تأملوا قوله: ﴿ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾، أتمنى أن يقف عند هذه الآية أولئك الذين يريدون أن يحكموا بالشرع عن طريق تحكيم الديمقراطية لعلّهم يعرفون أنّ هذا من ألاعيب الشيطان، وليس من دين الله في شيءٍ، إنما هو الضلال البعيد.

وتأملوا قوله: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾، يتحاكمون إلى الطاغوت ويحلفون بالله أن نيّتهم حسنة، فهم لا يريدون الضلال البعيد، ولكن يريدون الإحسان والتوفيق، وتفادي الصعوبات والمشاكل، واليوم يحكِّمون الديمقراطية، ويضعون شرع الله مع شرع غيره على ميزان واحد، ويرجعون إلى الشعب في مسألة تحكيم الشريعة، ويقولون غايتنا حميدة، ونيّتنا حسنة ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾.

إن دخولهم في العملية الديمقراطية متنازلين عن بعض ما أمر الله به يشبه ما رُوي في سبب نزول سورة الكافرون: أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: «تَعْبُدُ إِلَهَنَا سَنَةً اللَّاتَ وَالْعُزَّى، وَنَعْبُدُ إِلَهكَ سَنَةً»(١)، أو أنهم طلبوا منه أن يدخل في شيءٍ من دينهم، ويدخلوا في شيءٍ من دينه، فجاء الوحي من الله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ

---

(١) سبق تخريجه ص ٨٧ .

أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [سورة الكافرون].

لكننا ندعوهم إلى تأمل هذه الآيات وقد ذكرناها سابقًا:

عندما قال الله: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ﴾ [الشورى: ١٣]، قال بعدها: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ﴾ [الشورى: ١٥].

وقد حذَّر الله رسوله أشد التحذير من اتّباع أهواء الكفار وترْك الاستقامة كما أمره، فقال: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۝٧٣ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝٧٥﴾ [الإسراء: ٧٣-٧٥].

لم يطلب الكفار من رسول الله ﷺ أن يتنازل عن دعوته ويترك دين الله بالكلِّية، ولكن طلبوا منه أن يُجري تغييرات طفيفة فيما جاء به، ولو أجابهم الرسول ﷺ لطلبِهم لوالوْه وأحبوه وقرّبوه وصادقوه، لكن الأمر ليس له، فالدين دين الله، وليس على الرسول إلا أن يبلغ ما أُنزل إليه كما أُنزل، ويدعو كما أُمِرَ، ويستقيم على ذلك ولا ينحرف عنه أبدًا.

فليتأمل هذا دعاة الديمقراطية، الذين يريدون من خلال الاعتراف بها وإقرارها والعمل بها أن يصلوا إلى الحكم بالشرع، فليتأملوا هذا، لعلهم يعرفون أن الرسول ﷺ لو فعل شيئًا يسيرًا مما هم عليه اليوم لعذَّبه الله في الدنيا عذابًا مضاعفًا قبل عذاب الآخرة، فهل سيصرُّون بعد هذا على الاستمرار في غيِّهم وضلالهم؟

الفصل الرابع

اختيار الإسلام واختيار الشريعة

الفصل الرابع

اختيار الإسلام واختيار الشريعة

نتيجة للمفهوم الخاطئ لمعنى الإسلام في أذهان كثيرٍ من الناس اليوم، وغيابِ عقيدة التوحيد؛ صاروا يفرّقون بين اختيار الإسلام واختيار الشريعة، ويظنون أنه يمكن أن يكون الإنسان مسلمًا لله قبل أن يُعلن قبوله وانقياده والتزامه بشريعة الله، وتحكيمها على ما سواها، ويحسبون أن هناك تدرّجًا ومرحلية في الاختيار، وأن اختيار الإسلام لا يعني الانقياد والالتزام بالشريعة؛ ذلك لأنهم قد أفرغوا الإسلام من معناه وحقيقته، وجعلوه مجرّد اسمٍ لا يدل على مسمّاه، ولفظًا عاريًا عن معناه، وجعلوا التوحيد الذي هو معنى ومدلول شهادة أن لا إله إلا الله مجرّد التلفظ بحروفها، وبهذا تميَّع مفهوم الدين الحق عند أكثر الناس، وصاروا يدينون بالإسلام اسمًا ويدينون بغيره عقيدةً وعملًا.

فالإسلام – كما بيّنّا حقيقته في الفصل الأول – هو توحيد الاستسلام والقبول والتسليم لأمر الله وشرعه، وتحكيمه على ما سواه في الحياة كلِّها عن رضا ومحبة واختيار، ولا يمكن أبدًا أن يختار الإنسان الإسلام لله ويرفُض الانقياد لشريعته، أو يكون حرًّا في اختيار الشريعة أو رفضها، أو يجمع بين شرع الله وشرع غيره، فاختيار الإسلام كدين يعني اختياره منهجًا ونظامًا للحياة كلِّها، مع رفض واجتناب الشرائع والمناهج والأنظمة والأديان التي تخالف حكم الإسلام، قال الله تعالى:﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٖۚ﴾ [الأنعام: ١٦١-١٦٤]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣]، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾﴾ [البقرة:٢٠٨]، فلا يمكن أبدًا التفريق بين عقيدة

الإسلام وشريعته.

فالمسلم بدخوله الإسلام يعلن استسلامه الخالص لله وحده، وبراءته من الاستسلام والانقياد لغيره، ويعلن رضاه وتسليمه لحكم الإسلام في حياته كلِّها، وليس الرضا والتسليم لحكم الإسلام واختيار شريعته مفصولاً عن اختيار الإسلام والدخول فيه، بل كلاهما درجة واحدة ومرحلة واحدة، إما أن يحصلا جميعًا أو ينتفيا جميعًا، فمن أسلم فقد رضي حكْم الإسلام واختاره طوعًا، وأعلن قبوله وانقياده وتسليمه لأمر الله وحده، ولم يَعُد له الخِيَرة من أمره تجاه أوامر الله ورسوله، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقال: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [النور: ٤٧]، وقال الله تعالى:﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء: ٦٥]، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٠]، وقال: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٢].

فاختيار الإسلام يعني اختياره عقيدةً وشريعةً، ولا يمكن أبدًا التفريق بينهما، فالاحتكام إلى الله وحده ورفض الاحتكام لغيره، والإيمان بسيادة شرع الله وحاكميته وهيمنته على ما سواه هو حقيقة الإيمان بربوبية الله وألوهيته وحده، وإعطاء حق السيادة لغير شرع الله يناقض أصل الإسلام، ويهدم عقيدة التوحيد، كذلك إعطاء حقِّ الشرعية لغير شرع الله ينقض الإسلام من أساسه، فالإسلام لا يعترف بأحقِّيَّة أحدٍ غير الله في السلطة والسيادة والتشريع إلا ما كان مضبوطًا بضوابطه محدودًا بحدوده داخلًا في إطاره، فالسيادة العليا التي هي بمعنى السلطة غير المحدودة لا يملكها أحدٌ من البشر، فكلُّ سلطةٍ لغير الله محدودةٌ ومقيّدةٌ بما شرعه الله وأنزل به سلطانَه، وشريعة الله وحدها هي الحكَم والسلطان الملزِم للجميع؛ لأنها من عند

الله خالق الخلق كلِّهم ومالكهم، الذي له حق الحكم والسلطان والتشريع المطلق، ولا يسع أحدًا الخروج عنها، أو الاعتراض عليها، أو ترك الحكم بها والتحاكم إليها، وهذا ما يؤمن به المسلم ابتداءً عند أول لحظة يختار فيها الإسلام دينًا له في هذه الحياة، فحقُّ المسلم في السلطة والتشريع مقيَّدٌ بما أذن فيه الله، فإذا تعدَّى هذا الحدَّ، وشرع ما لم يأذن به الله عالمًا بمخالفته لشريعة الله، لم يبق في الإسلام لحظة واحدة، فكيف إذا ادَّعى لنفسه أو لغيره من البشر الحقَّ المطلق في السيادة والسلطة والتشريع من دون الله؟! وكيف لو ادَّعى أن سيادة البشر فوق سيادة الله وهي الحاكمة والمهيمنة على شريعة الله؟! تعالى الله عن افتراء المفترين وشرك المشركين.

لا خيار لمسلم غير تحكيم الشريعة.

ليس المطلوب منَّا كمسلمين مجرّد الاعتقاد بوجوب الحكم بشريعة الله من غير انقياد وإذعان لهذا الواجب في واقع الحياة، بل الفصل بين الاعتقاد بوجوب تحكيم الشريعة وتحكيمها فعلًا في واقع الحياة كلِّها هو ما تسعى إليه العلمانية الخبيثة، فهي تعارض تحكيم الشريعة عملًا، وتترك للفرد الحرية في اعتقاده، شرطَ ألا يكون للاعتقاد التأثير في الحياة العامة وعلاقات الفرد بالآخرين، والإسلام جاء بتحكيم الشريعة، وتطبيقها عملًا، لا مجرّد الاعتقاد بوجوب الحكم بها، وتقديسها وترتيلها في الصلوات، وعند افتتاح الندوات والاجتماعات والحفلات، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ

مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٤٤-٥٠]، وقال سبحانه:﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية: ١٨-١٩]، وقال: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام: ١٥٥]، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ﴿٦١﴾ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا

قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ [النساء: ٥٩-٦٥].

وقد عُلم بالاضطرار من دين الإسلام وجوب التزام شريعة الله في الحياة كلِّها، وأنه ليس لأحدٍ الخروج عنها في قليلٍ ولا كثيرٍ، سواء كان حاكمًا أو محكومًا، فشريعةُ الله التي كلَّف رسوله محمدًا ﷺ بتبليغها للناس كافة، واتّباعها والحكم بها هي المهيمنة والحاكمة على ما سواها، هي المهيمنة والحاكمة على شرائع الأنبياء من قبل، وهي المهيمنة والحاكمة على آراء البشر وأفكارهم، ونظرياتهم وأنظمتهم وقوانينهم، يجب الإقرار بهيمنتها وحاكميتها وسيادتها، وتقديمها على ما سواها قولًا وعملًا دون أي قيد أو شرط أو استثناء، فالسيادة العليا في الإسلام للشريعة ممثلة في نصوص القرآن والسنة، ولا سيادة تعلو سيادة الكتاب والسنة وهيمنتهما على غيرهما.

ولهذا لا نجد خلافًا بين المسلمين جميعًا في كفر من أحلّ حرامًا، أو حرّم حلالًا، أو بدّل حكمًا من الشرع المعلوم قطعًا من دين الله، أو اتخذ مصدرًا ومرجعًا يُرَدُّ إليه النزاع غير شريعة الله، كذلك لا خلاف في كفر من أجاز الخروج عن طاعة الله ورسوله، أو جوّز طاعة مخلوقٍ في معصية الله ورسوله، أو زعم أن الشريعة غير ملزِمة؛ هذا لأنهم يعرفون أن هذه الأمور مناقضةٌ تمامًا لأصل الإيمان بالله.

فمن رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا، ليس له أمام حكْم الله ورسوله إلا أن يقول سمعنا وأطعنا، لا يعارض ولا يمانع، ولا يختار مع الله، أما الذين يرون التفريق بين الإيمان بالشريعة اعتقادًا قلبيًا، وتحكيمها واقعًا عمليًا، إنما يدينون بالعلمانية ويكفرون بالإسلام، فهذا الفصل بين الدين القلبي والدين العملي الحاكم والمهيمن على حياة الناس هو دين العلمانية، فالعلماني لا يرى تعارضًا بين الاعتقاد الشخصي بوجوب الحكم بما أنزل الله وترك الانقياد لذلك عملًا، والاعتقاد بما أحلّه الله وحرّمه والتشريع الوضعي بما فيه من تحليل وتحريم القائم على مرجعية أخرى غير مرجعية الشريعة؛ لأن الأول يعتبره اختيارًا شخصيًّا، والثاني حقٌّ عامٌّ من حقوق الأمة؛ ولهذا يفرِّقون بين اختيار الإسلام واختيار

الشريعة، فاختيار الإسلام حق شخصي، واختيار الشريعة حقٌّ عامٌّ، فإذا اختارت الأمة الشريعة صار تطبيقها وتحكيمها ملزِمًا للأفراد؛ لأن اختيار الأمة لها أعطاها الشرعية والسيادة، أما إذا لم يكن اختيار الشريعة من الأغلبية فليس لأحدٍ أن يُلزِمها به حسب زعمهم.

وهذا التصور في غاية التناقض! فما هي الفائدة في اعتقاد وجوب تحكيم الشريعة مع عدم الاقرار بشرعيتها وحاكميتها، هذا اعتقاد لا قيمة له؛ لأنه معارَضٌ باعتقادٍ آخر وهو الاعتقاد بشرعية وسيادة غيرها.

فمن اعترف لأحدٍ بحق السلطة والسيادة فوق سلطان الله وسيادة شريعته فقد كفر بالإسلام جملةً وتفصيلًا، فأولئك الذين يعترفون بمبدأ سيادة الأمة، أو سلطة الشعب، دون أن تكون هذه السيادة والسلطة مقيّدةً بسلطان الله، ومحدودةً بحدود شرعه منسلخون من الإسلام بالكلِّية، وكيف يكونون مسلمين وهم لا يؤمنون بسيادة الشريعة الربّانية وهيمنتها وحاكميتها؟! بل يؤمنون بسيادة القانون الذي تُقِرُّه وتختاره الأمة، فما اختارته الأغلبية هو القانون الشرعي الذي يجب قبوله والاذعان له، ويَحْرُم الخروج عنه، وهذا مناقضٌ لأصل الإسلام من كل وجه، فمن وضع شريعة الله في كفّة واحدةٍ مع شرائع البشر، وجعلها مرهونة بأهواء الناس قبولًا أو ردًّا، وجعل آراء الناس هي الفيصل والحَكَم على الشريعة، فما عرف الإسلام ولا شمَّ ريحه ولا اقترب منه، فكيف يُقبل ادّعاؤه الإسلام مع جهله بحقيقته وكفره الصريح به؟!

يعطون الناس حرية الرأي والتعبير من غير قيدٍ ولا شرطٍ، ويرجعون لرأيهم في قبول شرع الله أو رفضه، ويخيِّرونهم بين شرع الله وشرع غيره، ثم يجلسون ينتظرون النتيجة، فإذا اختاروا شرع الله فهم مسلمون قبل الاختيار وبعده! وإذا اختاروا غيره فهم مسلمون أيضًا! ويقولون: نحن متأكدون أن الشعب لن يختار إلا شريعة الله لأنهم مسلمون، فهل يُقِرُّ الإسلام الرجوع إلى رأي البشر في تحكيم شريعة الله؟! إن كان الناس مستسلمين لله حقًّا، لماذا هذا العرض السخيف: هل تريدون حكم الله أم حكم الجاهلية؟

هل يمكن أن يقبل مسلمٌ أن يُجعل رأيه حكَمًا على شريعة الله؟ ما معنى إسلامه إذًا؟!

ثم ما هذا النظام الذي يعطي للناس حقّ التعبير عن رأيهم في قبول حكم الله أو رفضه؟ هل هو نظامٌ محكومٌ بسلطان الله؟!

كيف يظن مسلمٌ أن الله قد أنزل شريعته وترك لنا الخيار في العمل بها أو إلغائها، أو أنه كلّفنا أن نعتقدها ولم يكلّفنا تطبيقها والعمل بها في واقع الحياة، أو أنه يأجُرنا إذا اتّبعناها ولا يعاقبنا إذا تركناها؟! هذا لا يخطر على بال مسلم، فما بالُ الناس اليوم يظنون أن الخيار لهم في اتّباع شريعة الله مع ادّعائهم الإسلام؟!

إنهم يحاولون أن يتجاهلوا كلَّ هذه المقدمات التي تناقض الإسلام مناقضةً صريحةً، ويظنون أن الإشكال كلّه في التعامل مع نتيجة الانتخابات، كيف سيكون الموقف لو كانت النتيجة ضد تحكيم الشريعة؟ ولهذا يُطَمْئِنون أنفسهم بقولهم (نحن متأكدون أن الناس لن يختاروا إلا حكم الإسلام)؛ ليخرجوا من هذا الإشكال.

صدق رسول الله ﷺ حين قال: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»(١).

لقد كنّا نتحدث في زمن القذافي مع بعض الشباب المتحمِّس لتطبيق الشريعة، ونقول لهم: أن الشعوب هم السبب في بقاء هذه الأنظمة الجاهلية، فما قامت إلا على أكتافهم، هم الذين بَنَوْها، وأذعنوا لها، ورضوا بها، وتحاكموا إليها، ونسوا الإسلام وجهلوا حقيقته. فلم يقبلوا قولنا هذا، وقالوا: إن الشعب يريد تحكيم الشريعة ولكن يمنعهم الطواغيت من ذلك، فهم مكرهون على ترك الشريعة والحكم بغيرها. ومع أن هذا القول بعيدٌ جدًا عن الحقيقة والواقع، لكن لو سلَّمنا بأن الناس مُكرهون على ترك الإسلام مع أنهم تركوه عقيدةً قبل أن يتركوه عملًا، فما الذي يمنعهم من الرجوع إلى الإسلام اليوم بعد أن ثارت الشعوب على أنظمتها؟ ألا

(١) رواه مسلم.

يعيش الناس اليوم مرحلة ما قبل اختيار الشريعة مصدرًا وحيدًا للحكم والتشريع، ومرجعيةً عليا في تنظيم جميع شئون الحياة؟! فماذا يمكن أن نسمي هذه المرحلة؟! هل نسمِّيها (مرحلة ما قبل الإسلام)؟!

إنها حقائق يسعى الكثيرون لتجاهلها ومحاولة القفز فوقها وغض الطرْف عنها، مع أنه كان من الواجب أن ننطلق من المعطيات الموجودة في الواقع، ولا نحاول تجاهلها؛ لتكون خطوات العودة للإسلام على المنهج الرباني المستقيم.

اختيار الحاكم.

حقُّ المسلمين في اختيار من يحكمهم من الحكام والأمراء لا يكون إلا تحت سيادة الشريعة وحكمها، فلا يسعُهم تجاوز حدود الشريعة في اختيارهم، كما لا يسع من اختاروه حاكمًا أو أميرًا عليهم أن يتجاوزها، فلا يختارون إلا واحدًا منهم يحكمهم بكتاب الله وسنة رسوله، فتكون طاعته واجبةً إذا أمر بالمعروف، وولايته ثابتة مادام على الإسلام، فإذا خرج عن الإسلام زالت ولايته، وانفسخت بيعته، ووجب الخروج عليه، وإذا أمر بما يخالف أمر الله ورسوله فلا طاعة له، قال رسول الله ﷺ: «لَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةٍ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ»[(١)]، وقال: «السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى المَرْءِ المُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ»[(٢)]، وقال: «إِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ مُجَدَّعٌ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللهِ تَعَالَى، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا»[(٣)]، وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: دَعَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَبَايَعْنَاهُ، فَكَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا: «أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه مسلم.

وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةٍ[١] عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ»، قَالَ: «إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»[٢].

فالحاكم وكيلٌ عن الأمة في إقامة الدين وتحكيم الشريعة بين الناس، وشرعيّته مرهونة بتحكيمه شرع الله بين الناس وبقائه على أصل الإسلام، والمسلمون إنما يختارونه ليحكم بينهم بما أنزل الله، فمتى خالف حكْمُه شرعَ الله فلا مشروعية له، ولا يجوز طاعته، وأيُّ قرارٍ يصدر عنه مخالفًا للشريعة لا اعتبار له، فشريعة الله يجب أن تكون هي الحاكمة على الجميع، وهي الفيصل بين الناس في حقوقهم ومنازعاتهم، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٥٩﴾ [النساء: ٥٩]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ۝١٠٥﴾ [النساء: ١٠٥]، وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٤٤﴾ [المائدة: ٤٤]، وكلُّ ما خالف شريعة الله فهو باطل، وحكم الفرد كحكم الأغلبية إن خالف الشريعة، لا مشروعية لمخالفته، ولا يجوز طاعته، وأيُّ قرارٍ يصدر مخالفًا للشرع من أيِّ جهةٍ فلا اعتبار له، فإذا حكَم الله ورسوله بشيءٍ فليس لأحدٍ مخالفته، ولا اختيار لأحدٍ هنا ولا رأي ولا قول.

وخلاصة القول أن من اختار الإسلام حقًّا فقد اختاره عقيدةً وشريعةً ومنهجًا للحياة كلِّها، أمّا أولئك الذين يدّعون أنهم اختاروا الإسلام ولم يدينوا به عقيدةً وشريعةً ومنهجًا

---

(١) الْأَثَرَةُ عَلَيْنَا: (بفتح الهمزة والثاء) أي: على تفضيل غيرنا علينا، والمراد أن طواعيتهم لمن يتولى عليهم لا تتوقف على إيصالهم حقوقهم، بل عليهم الطاعة ولو منعهم حقّهم، أو استأثر غيرهم عليهم.

(٢) متفق عليه.

ونظامًا فهم كاذبون، يعيشون في وَهْمٍ وخيالٍ لا حقيقة له، قال الله تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النساء: ١٢٣-١٢٥]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [آل عمران: ٣١-٣٢]، وقال: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٠].

هل صدق الناس اليوم في اختيار الإسلام؟

لا يصدُق في اختيار الإسلام إلا من عرف كيف يكون مسلمًا، فانقادَ وأسلمَ لله وحده عقيدةً وقولًا وعملًا، وأكثرُ الناس اليوم لا يعرفون حقيقة الإسلام لرب العالمين، وإن كانوا يزعمون أنهم مؤمنون بالإسلام كافرون بما سواه، ولا يعرفون معنى شهادة أن لا إله إلا الله، وإن كانوا يقولونها بألسنتهم، ويحسبون أن التوحيد هو قول لا إله إلا الله، من قالها فهو من المسلمين وإن لم يعتقد معناها الحق ويعمل به، وهذا جهلٌ عظيمٌ بحقيقة التوحيد، وكيفية الإيمان بشهادة أن لا إله إلا الله، فإن مجرّد قولها مع عدم الإيمان بها لا يحقق التوحيد ولا ينفي الشرك، فلابد أن يعرف قائلها معناها أولًا، ويعمل بها ظاهرًا وباطنًا، فينفي ما نفته، ويثبت ما أثبتته عملًا واعتقادًا ليس قولًا فقط، فالمسلم لا يتميَّز عن المشرك ويفارقه في القول فقط، بل يتميَّز عنه ويفارقه في الاعتقاد والقول والعمل، المسلم موحد باعتقاده وقوله وعمله، والمشرك هو من جعل شريكًا مع الله باعتقاده أو قوله أو عمله. وإن لم يعرف الناس معنى لا إله إلا

الله، ويؤمنوا بها عقيدةً وقولًا وعملًا فلا يميّزهم مجرّد قولهم لها عن الكفار، ولا يبرئهم من الكفر الذي يعتقدونه ويعملون به.

ولجهل الناس بالتوحيد ومفهوم العبادة الصحيح تراهم يصرِفون العبادة لغير الله، ويحسبون أنهم لا يعبدون أحدًا إلا الله، كما حدث لأهل الكتاب من قبل.

عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ:«يَا عَدِيُّ، اطْرَحْ هَذَا الْوَثَنَ مِنْ عُنُقِكَ»، فَطَرَحْتُهُ، فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ بَرَاءَةٌ، فَقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حَتَّى فَرَغَ مِنْهَا. فَقُلْتُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ. فَقَالَ:«أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟» قُلْتُ: بَلَى. قَالَ:«فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»[(١)].

عَدِيُّ بن حاتمٍ هذا كان نصرانيًا، فلمّا سمع من رسول الله ﷺ يقرأ أن الله أخبر عن اليهود والنصارى أنهم عبدوا علماءهم وعُبّادهم من دون الله أنكر هذا، مع أنهم كانوا يطيعون علماءهم وعُبَّادهم فيما شرعوه مخالفًا لدين الله، وفيما بدَّلوه من أحكام الله، ولكنهم ما كانوا يعرفون أن طاعتهم هذه عبادةٌ لهم من دون الله، بل كانوا يحسبون أنفسهم لا يعبدون إلا الله، وأنهم مازالوا على دين المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، ولم يكن جهل عديٍّ وأمثاله من النصارى مانعًا من تكفيرهم ووصفهم بالشرك، مع أنهم كانوا يحسبون أنفسهم مهتدين.

واليوم لو قلتَ لعُبَّاد القبور أنكم عبدتم غير الله لأنكروا عليك ذلك، وقالوا نحن لا نعبد أحدًا إلا الله، مع أنهم يدعونها ويستغيثون بها فيما لا يقدِر عليه إلا الله، ويذبحون لها، ويتبرّكون بها، ويَنذِرون لها، ويطوفون حولها، ولا يعرفون أن أعمالهم هذه عبادة لغير الله،

---

(١) رواه الترمذي في السنن، ونسب السيوطي في الدر المنثور تحسين الحديث إلى الترمذي، وزاد نسبة الحديث وعزْوه إلى ابن سعد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبي الشيخ، وابن مَرْدَوَيه، والبيهقي في سننه.

فكيف يوحِّدُ اللهَ أمثالُ هؤلاء إذا لم يعرفوا حقيقةَ العبادة التي يجب أن تكون خالصةً لله، وحقيقةَ الشرك المناقض لتوحيد الله؟

كذلك لو قلت لعامة الناس في مجتمعاتنا هذه التي تتّبع تشريع غير الله في كثيرٍ من مجالات الحياة، وتحكُم به وتتحاكم إليه: أنكم عبدتم غير الله لأنكروا عليك ذلك، وقالوا نحن لا نعبد أحدًا إلا الله؛ وهذا لجهلهم بالمفهوم الصحيح للعبادة، فهم في الحقيقة يعبدون غير الله، ويتخذون من دونه أربابًا كما فعل أهل الكتاب من قبل، أليس حكَّامهم ورؤساؤهم يُشرِّعون لهم من دون الله، ويحكُمونهم بقوانين وضعيةٍ ما أنزل الله بها من سلطان؟ وهذه الشعوب أليست متّبعةً لشرائع وقوانين وأنظمة حكَّامِها وسادتِها، متحاكمةً إليها، مواليةً لأنظمتها، دون أن ترى حرجًا في ذلك، ومع هذا يحسبون أنهم لا يعبدون إلا الله؛ لأنهم يقولون لا إله إلا الله، ويصلُّون، ويصومون، ويحجُّون لله. هذا هو مفهوم العبادة عندهم.

هذا واقعٌ كنّا نعيشه قبل أن نعرف حقيقة الإسلام والمفهوم الصحيح لعبودية الله، وهذا هو الواقع الذي يعيشه الناس اليوم، فكثيرٌ من الأمور المتعلقة بتوحيد الله وحقيقة دين الإسلام مازالت غائبة في أذهان كثيرٍ من الناس، وليس السبب هو غموض الحق وصعوبة معرفته، ولكن إعراض الناس وعدم حرصهم على تعلم التوحيد هو السبب في ذلك.

مازال أكثرُ الناس لا يعرفون أن طاعتهم العمياء لحكَّامهم، واتّباعَهم شريعتهم، وقبولَهم لأنظمتهم، والدفاعَ عنها، وتعظيمَهم لهم، وتحاكمَهم لمحاكمهم الوضعية عبادةٌ لهم من دون الله، مع أن حكَّامهم لا يتّبعون شرع الله وحده في حكْمهم، ولا يرون بأسًا في مخالفة أحكام الله، بل إنهم يشرِّعون من دون الله، ويقدِّمون تشريعهم على شرع الله، ويحكُمون به بدلًا عن حكم الله، ويوجبون العمل به دون العمل بكتاب الله وسنة رسوله، ويحرِّمون الخروج عن شرعهم ونظامهم؛ وشعوبُهم هي التي تختارهم في غالب الأحيان، وحتى من لم يخترهم من الشعب ولم يرضَ بهم لم يحقق الكفر بهم وبأنظمتهم وشرائعهم وأتْباعهم، ولو قلت لهؤلاء

الناس أنكم اتخذتم علماءكم وحكّامكم أربابًا من دون الله، لأنكروا ذلك، وقالوا: نحن لا نعبد إلا الله، أرأيتَنا نصلِّي لهم، أو نصوم لهم، أو نحجُّ لهم، أو نتلو دستورهم في صلاتنا؟!!

هذا هو حال الناس مع حكامهم اليوم، فاستبداد حكَّامهم بالسلطة والسيادة المطلقة، واستيلاؤهم على ثروات بلادهم، وقمعهم لشعوبهم هو الذي جعل هذه الشعوب تثور عليهم، وتسعى لإسقاطهم، وليس حَمِيَّةً لدين الله، وإعلاءً لكلمته، وغَيْرةً على محارمه وحدوده كما يزعمون، فهذه الشعوب في الحقيقة ما أرادت بثوراتها إلا أن تتحرر من الظلم والقهر والاستبداد، وتكون شريكة في السلطة والسيادة؛ ولهذا خرجت تطالب بأن يكون لها الحكم والتشريع والسيادة المطلقة، وتنادي بالديمقراطية تظن أنها الحلم السامي والطريق الوحيد الذي يضمن لها الحرية والعدل والمساواة، ما خرجت نصرةً لدين الله، وإعلاءً لكلمته، وسعيًا لإقامة نظامه ومنهجه، وتحكيم شرعه. فإعلاء كلمة الله هو إعلاء دينه وإظهاره على ما سواه، حتى يكون الدين كلُّه لله، ولا يكون الدين خالصًا لله حتى تكون العبادة كلُّها له وحده، وتكون السيادة والسلطة لشرعه وحده، والديمقراطية لا تقوم على هذا الأساس، بل تقوم على الشرك بالله في العبادة والطاعة والحكم والتشريع.

لم يعرف الناس بعدُ أنهم عبيدٌ لحكّامهم ورؤسائهم من دون الله، وأنهم لا يعبدون الله وحده، وأن ما هم عليه من الدين ليس هو الإسلام الذي ارتضاه الله وبعث به رسله، فهم يشركون بالله في العبادة والحكم والتشريع والطاعة والولاء، ولا يعرفون أن هذا ينافي الإسلام، وليس الجهل فقط هو المانع لهم من العودة إلى الإسلام، فكثيرٌ منهم يصرِّحون بأنهم يريدون إسلامًا يتماشى مع أهوائهم، ومنهم من يصرِّح بأنه يريد العلمانية لا الإسلام.

والواقع يشهد بأنهم لم يختاروا بعدُ أن يعبدوا الله وحده، ويُسلموا له باتّباع شريعته وحده، والحكْم بها والتحاكم إليها في جميع مجالات الحياة الخاصة والعامة الداخلية والخارجية، ومنهم من يظن أن اختيار الديمقراطية أمرٌ يباركه الإسلام، ومازال كثيرٌ منهم يظن أنه لا دخل للإسلام في السياسة، فالحقيقة أنهم لم يتحرروا بعدُ من عبودية غير الله، ولم يُخلصوا عبوديتهم

لله وحده؛ وهذا كلُّه لسببين:

الأول: لأن الفريق الغالب منهم لايزالون يجهلون كيف يُعبد الله وحده؟ وما هو الشرك في العبادة الذي يجب اجتنابه والحذر منه؟ وما هو الطاغوت الذي يجب أن يكفروا به أولًا قبل تحقيق الإيمان بالله؟

الثاني: عدم إرادة هذا الطريق أصلًا، أي أنهم لا يريدون أن يكونوا موحدين مستسلمين لله وحده، ولا يفكّرون في هذا، بل همُّهم أن يعيشوا في ظل نظامٍ يعطيهم الرواتب العالية، ولا يقيِّد حريَّاتهم الشخصية، ولا يمنعُهم من التمتع بشهواتهم وملذّاتهم كيف شاءوا، يريدون نظامًا ديمقراطيًّا يعترف بحقّهم في السلطة والسيادة والحكم، ويجعلُهم شركاء في ذلك، أما أن يردُّوا الحكم والسيادة المطلقة لله، فلا يكون لهم نصيبٌ من السلطة والسيادة والتشريع إلا ما أذن لهم به الله، فهذا أمرٌ لا يَشْغَلُهُم ولا يريدونه، بل منهم من يعدُّه تخلّفًا ورجوعًا إلى الوراء.

هذا هو الواقع الذي نراه ونلمسه ونعيشه، ولهذا كلِّه كان الواجب علينا أن نبيّن حقيقة العبودية لله بمفهومها الصحيح؛ ليختار بعدَها الناس أن يعبدوا الله وحده، أو يبقوا في ذُلِّ العبودية لغيره، وهذا مهمٌّ جدًا الآن، وفي كل وقت؛ ليرتفع صوت الحق فوق أبواق العلمانيين، عسى الله أن يُظهر دينه، ويدحَض باطل أعدائه الرافضين لحكمه وشرعه.

ولا يستوي أبدًا في دين الله من استسلم لله وحده بقبول شرعه والتسليم له والرضا به والاحتكام إليه، ولم يتخذ من دونه وليًّا، ولم يبغِ سواه حكمًا ولا ربًّا، ومن اتخذ من دون الله شركاء وأربابًا، يسمع لهم ويطيع، منقادًا لأوامرهم، متّبعًا شريعتهم، محكِّمًا دستورهم، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الزمر: ٢٩]، هذا المثل الواضح يبيّن لكل عاقلٍ الفرق بين التوحيد والشرك، وهو مَثل لرجلين، أحدهما عبدٌ يشترك فيه سادةٌ مختلفون متنازعون، يأمره أحدهم بأمر ويأمره الآخر بخلافه، فهو متفرقٌ بينهم ﴿ رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ ﴾، والآخر عبدٌ خالصٌ لسيدٍ واحدٍ لا منازع له فيه، يتلقى منه وحده ويطيعه

وحده ﴿ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾.

فالعبد الذي له أكثر من سيد هو مثَل المشرك، يتوجه بالعبودية لله ولغيره، ويتلقى الأحكام والأوامر من الله ومن غيره. والعبدُ الذي له سيِّدٌ واحدٌ لا ينازعه فيه أحد هو مثَل المسلم، يتوجه بالعبادة لله وحده، ويسمع ويطيع لله وحده، يقبل شرع الله ويرفض ما سواه، فهو متحرِّرٌ من عبودية غيره.

فعبودية الله لا تجتمع مع عبودية غيره أبدًا، فمن لم يوحد الله في عبادته لم يعبد الله وإنما عبد غيره.

فليس عابدًا لله من يتلقى عقائده، أو أخلاقه، أو أحكام المعاملات، أو الحدود والعقوبات، أو الحلال والحرام من غير الله، قال الله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورى: ٢١]، وقال: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [التوبة: ٣٧].

وليس عابدًا لله من يطيع غيره في تشريع ما لم يأذن به الله، أو تبديل شيءٍ من أحكام الله، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقال: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

وليس عابدًا لله من يستبدل بحكم الله حكم غيره، أو يتحاكم لمن يتخذ غير شريعة الله مرجعًا لحكمه؛ لأن كل من اتخذ مصدرًا غير شريعة الله يرجع إليها في حكمه فهو طاغوت، وإن كان يأخذ أحكامه من شريعة الله أيضًا، فالجمع بين شرع الله وشرع غيره هو حقيقة الشرك والكفر بالله، وتحكيم شرع غير الله إيمانٌ بالطاغوت وكفرٌ بالله، قال الله تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥٠]، وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [النساء:٦٠].

هؤلاء ليسوا عابدين لله؛ لأنهم جعلوا لله شركاء وأندادا، ولا ينفعهم ادّعاؤهم الإسلام؛ لأنهم لم يسلموا لله، ولم يعبدوه مخلصين له الدين، ولا ينفعهم قول لا إله إلا الله؛ لأنهم لم يوحِّدوا الله.

فالذين يتوجهون بالعبادة لغيره، ويجعلون لله شركاء في الحكْم والتشريع، ويتخذون بعضهم أربابًا من دون الله، ويوالون ويعادون لأوطانهم وأحزابهم وأنظمتهم وحكَّامهم من دون الله؛ هؤلاء محسوبون على الإسلام، والإسلام منهم بريء، وما هم بمسلمين، وعليهم أن يُعيدوا اختيارهم للإسلام فقد أخطؤوا الطريق. فالتوجه بالعبادة لغير الله، وقبول التشريع من غير الله، والاحتكام لغيره عبادةٌ لغير الله، وعبادة غير الله دين المشركين، ولا يمكن أن يكون الإنسان مسلمًا ومشركًا في آن واحد أبدًا، بل لابد من البراءة من المشركين وشرْكهم للدخول في الإسلام ابتداءً، قال الله تعالى: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٧٨-٧٩]، وقال: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ [سورة الكافرون].

لا صلاح للعباد والبلاد إلا في طاعة الله ورسوله واتّباع شرعه.

لم يكن الله لِيَدَع عباده سدًى، ويتركهم هملًا كالأنعام السارحة، دون أن يأمرهم وينهاهم، ويحاسبهم على ما كسبت أيديهم، قال الله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ ﴾

[القيامة: ٣٦]، وما أرسل الله الرسل وشرع الشرائع إلا رحمة بالناس، قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٢]، وقال: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [النحل: ٦٤]، وقال سبحانه: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النساء: ٢٨]، وقال: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [المائدة: ٦]. ومن تمام رحمة الله بعباده ونعمته عليهم أن جعل شريعته شاملةً كلَّ ما يحتاجه الناس لتنظيم شئون حياتهم، وحفظ مصالحهم، ودفع المفاسد عنهم، وقيام دولتهم، وتحقيق سعادتهم في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ»(١)، فجاءت الشريعة بحفظ الدين، والنفس، والنَّسل، والعِرض، والمال على أكمل وجه، شريعةً متكاملةً متعاضدةً، لا تضادَّ فيها ولا اختلاف، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء: ٨٢].

فمن ابتغى الهدى في غير شريعة الله من النُظم والقوانين الوضعية وآراء البشر أضلَّه الله، قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٤-١١٦].

---

(١) رواه مسلم.

ومنذ أهبط الله عَزَّوَجَلَّ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الأرض كلّمه قائلًا: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤]، فاتّباع هدى الله هو العاصم من الضلال والشقاء في الدنيا والآخرة، والكفيلُ بذلك هو الله عَزَّوَجَلَّ، ومن أوفى من الله عهدًا، وأصدق منه قيلًا، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران: ١٠١]، والاعتصام بالله هو الاعتصام بدينه، والتمسك بشريعته، وقد أوصى الله نبيه بذلك، وحذّره أشد تحذيرٍ من الانحراف عنها، قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٣-٤٤]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية: ١٨-١٩]، وأمَرَه أن يقول: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِىۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾ [سبأ: ٥٠]، وأن يقول: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥]، وأن يقول: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ٥٦]، فالتمسك بشريعة الله هو طريق الهدى والصلاح والاستقامة، والانحراف عنها هو سبب الضلال والشر والفساد، قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ، كِتَابُ اللهِ»(١)، والاستمساك بكتاب الله ليس مجرّد حفظ حروفه، وترديد ألفاظه، بل هو الإيمان به كلِّه عقائده وشرائعه، واتّباعه في

---

(١) رواه مسلم.

الحياة كلِّها، والحكْمُ به، وردُّ النزاع إليه، فمن رام[(١)] الإصلاح ولم يسلك طريق الكتاب والسنة، فإنما هو من المفسدين لا من المصلحين.

وما عَمِل الناس بشريعة الله في أرضه إلا كان الخير والبركة والنور والعدل والصلاح، ومن شكَّ في هذا فَلْيُقَلِّبْ صفحات التاريخ، وليبحث عن زمنٍ عاشت فيه أمة من الأمم في خير وهناء كالذي عاشته أمة الإسلام، يوم كانت تدين به ولا تحتكم لغيره، أما المؤمن فلا حاجة إلى أن ينبَّه لهذا، فيقينه بوعد الله يملأ قلبه، فلا يدع فيه مجالًا للشك، فقد وعد الله من سلك سبيله، واتّبع شريعته، وأطاع رسوله أن يهديه سواء السبيل، ويُخرجه من الظلمات إلى النور، ويحييه حياةً طيبةً، ويوسِّع عليه ويبارك له في رزقه، قال الله تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة: ١٥-١٦]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّأَتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [النساء:٦٦-٦٩]، وقال: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل: ٩٧]، وقال في فاتحة سورة هود: ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ ﴾ [هود: ١-٣]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الجن: ١٦]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

---

(١) رام الشيء: أي طلبه.

عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ(١) وَالرِّفْعَةِ وَالنُّصْرَةِ وَالتَّمْكِينِ فِي الْأَرْضِ، وَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلَ الْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ نَصِيبٌ»(٢).

وما أرسل الله من رسولٍ إلا ذكَّر قومه أن توحيد الله واتّباع شريعته هو السبيل إلى استدرار رحمته، واستجلاب رزقه، فهذا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول لقومه: ﴿ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢ ﴾ [نوح: ١٠-١٢].

وهذا هود عَلَيْهِ السَّلَامُ بعده يذكّر قومه قائلًا: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ۝٥٢ ﴾ [هود: ٥٢].

ولكن الشيطان الذي أخذ على نفسه عداء آدم وذريته، استطاع أن يجتال(٣) أكثر الناس عن منهج الله وصراطه المستقيم، ويصرِفهم عن اتّباع شريعته والاحتكام إليها إلى شرائع أخرى اخترعوها لأنفسهم، وجعلوها حكَمًا بينهم، فضلُّوا ضلالًا بعيدًا، وعاشوا في جاهلية، لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا إلا ما وافق أهواءهم، فوقع شرٌّ وفسادٌ عريضٌ، وأظلمت الأرض من كثرة عِصيان بني آدم وطغيانهم على الله.

وكما أن إخلاص العبودية لله، واتّباع شريعته، وطاعة رسوله، والحكم بما أنزله مفتاح السعادة، وسبب الخير والبركة، وسَعَة الرزق؛ فإن اتّباع غير سبيل الله، ومخالفة شريعته،

(١) السَّنَاءُ: الشرف وعلو المنزلة والقدْر عند الله.

(٢) رواه أحمد، وابن حبان، والبيهقي في شعب الإيمان، والبغوي في شرح السنة، والحاكم في المستدرك وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٣) الاجْتِيَال: هو السَّوْقُ، يُقال: اجْتَلْتُ من الإبل ناقةً بمعنى أخرجتُها، وأخَذْتُ في سَوْقِهَا. واجتالتهم الشياطين: أي صرفتهم عن الهدى إلى الضلال، واستخفتهم فجالوا معهم في الضلال.

ومعصية أمره وأمر رسوله، والإعراضَ عن كتابه، وتحكيمَ غيره سببُ الضلال والشقاء والعذاب، وانتشار الفتن والفواحش، والفوضى والظلم والفساد، وحياة الذل والصَّغار، وقلة الأمطار، وارتفاع البركة، وكثرة الأمراض المستعصية، وهذا من العذاب الأدنى قبل العذاب الأكبر، عياذًا بالله من ذلك، قال الله تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ومخالفةُ أمر الله ورسوله إذا كان مع بقاء أصل الإيمان وسلامة الاعتقاد من غير ردٍّ وامتناعٍ عن القَبول والانقياد فهي معصيةٌ دون الكفر، أما إذا كانت المخالفة مع عدم الإيمان بالأمر، أو مع رفض التسليم والانقياد، أو كانت عدولًا عن شرع الله إلى شرع غيره، فذاك هو الكفر الأكبر والضلال البعيد، قال الله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [الشورى:٢١]، لولا ما سبق من قضاء الله أن يؤخِّر عقوبتهم في الآخرة؛ لأنزل بهم العذاب، وأهلكهم باتخاذهم مشرِّعين من دون الله، يشرِّعون لهم من الأحكام والأوامر والقوانين ما لم يأذن به الله، وإن لم يُعذَّبوا في الدنيا على صنيعهم هذا فسيعُذّبون في الآخرة، فالله عَزَّوَجَلَّ يُمهِل ولا يُهمِل.

وما استحق اليهود والنصارى لعنة الله وغضبه إلا لكفرهم واتخاذهم علماءهم وحكامهم أربابًا من دون الله، يطيعونهم في معصية الله، وتبديل شريعته، ولإعراضهم عن كتاب الله، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة: ٧٨-٨١]، وقال سبحانه: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ

أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [آل عمران: ١١٢].

لقد أهلك الله أقوامًا لما أشركوا به، وخالفوا أمره، وعصوا رسله، وجعلنا خلفاء من بعدهم، فإن أطعنا الله ورسوله، واتّبعنا شريعته؛ مكَّن لنا في الأرض، وفتح علينا بركات من السماء والأرض، وإن حذَوْنا حذْوَهم، نالنا من العقاب ما نالهم، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يونس: ١٣-١٤].

فلم يستخلفنا الله في أرضه لنفسد فيها، ولكن استخلفنا لنصلحها بعد أن أفسدها المجرمون، فمن أطاع الله ورسوله فقد أصلحها، ومن عصى الله ورسوله أو أمر بمعصيته، فقد أفسد فيها، قال تعالى: ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٥-٥٦]، لا تفسدوا فيها باتّباع الهوى بعد أن أصلحها الله بشريعته.

قال أبو حاتم: [قيل لأبي بكر بن عيّاش: ما قوله في كتابه: ﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾؟ فقال أبو بكر: إن الله بعث محمدًا ﷺ إلى أهل الأرض، وهم في فسادٍ، فأصلحهم الله بمحمد ﷺ، فمن دعا إلى خلاف ما جاء به فهو من المفسدين في الأرض][(١)].

قال أبو الليث: [وذلك أن الله تعالى إذا بعث نبيًّا فأطاعوه صلَحت الأرض، وصلَح أهلها، وفي المعصية فساد الأرض، وفساد أهلها][(٢)].

---

(١) تفسير أبي حاتم.

(٢) تفسير السمرقندي.

قال البغوي: [أي لا تفسدوا فيها بالمعاصي، والدعاء إلى غير طاعة الله، بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل، وبيان الشريعة، والدعاء إلى طاعة الله،... وقال عطية: لا تعصوا في الأرض فيمسك الله المطر، ويهلك الحرث بمعاصيكم][1].

فالداعي إلى غير طاعة الله من أكبر المفسدين في الأرض، فما صلحت الأرض إلا بطاعة الله ورسوله، والحكم بين الناس بما أنزله، وما فسدت إلا بمعصية الله ورسوله، وترك الحكم بما أنزله، قال الله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١]، تأملوا قوله: ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، هذه الأمراض، والأوجاع، والعاهات، وجدْب الأرض، وقلة البركة، وتسلط الأعداء، وحياة الذل والهوان، وضيق المعيشة؛ بسبب ذنوبنا ومخالفتنا أمر ربنا، وإنما أذاقنا الشيء اليسير من أعمالنا، ولو أذاقنا كلَّ أعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

فمن تأمل حاله وحال العالم عامة، وجد أن كلَّ شرٍ، وفتنةٍ، وفسادٍ، وبلاءٍ، وقحطٍ، وتسلط عدوٍّ سببه الانحراف عن صراط الله المستقيم، ومخالفة شريعته الطاهرة، ولا صلاح لما أفسده الناس إلا بالرجوع إلى الإسلام الحق، والتمسك بالكتاب والسنة، والتزامهما وتحكيمهما، وترك ما خالفهما، قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة: ٦٥-٦٦].

وقال رسول الله ﷺ في الحديث الذي يخبر فيه بنزول عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في آخر الزمان يحكُم بهذه الشريعة المطهرة: «ثُمَّ يُقَالُ لِلأَرْضِ أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ، وَرُدِّي بَرَكَتَكِ، فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ

(١) تفسير البغوي.

الْعِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ، وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا، وَيُبَارَكُ فِي الرِّسْلِ، حَتَّى أَنَّ اللِّقْحَةَ مِنَ الإِبِلِ لَتَكْفِي الْفِئَامَ مِنَ النَّاسِ، وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْبَقَرِ لَتَكْفِي الْقَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ، وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْغَنَمِ لَتَكْفِي الْفَخِذَ مِنَ النَّاسِ»(١).

فمن زعم الإصلاح، ونشْر العدل، ولم يسلك سبيل الله ويتّبع شريعته، فإنما يريد الإفساد، وسبيله سبيل المفسدين، والواقع يشهد بهذا، فما جاءت العلمانية والديمقراطية والمناهج الغربية إلا بالشرِّ والفساد، فسادٍ عقائدي، وفسادٍ أخلاقي، وفسادٍ اقتصادي، وفسادٍ سياسي، وفسادٍ اجتماعي، وفسادٍ ثقافي، وفسادٍ الحياة بأسرها، فكلُّ منهجٍ يخالف منهج الله لا يحقق إلا الفساد، والخارجون عن شريعة الله هم المفسدون في الأرض، والله لا يحب الفساد ولا المفسدين.

وما هلاك الأمم الأولى إلا بمعصية الله ورسله، واتّباع ساداتهم وكبرائهم وأغنيائهم، قال الله تعالى: ﴿ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦].

هلك قوم نوحٍ لمّا عصوا نبيهم، ولم يستجيبوا لدعوته، واتّبعوا قادتهم ورؤساءهم، قال الله تعالى: ﴿ قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ٢١﴾ [نوح:٢١]، عصوا نوحًا لمّا قال لهم: ﴿ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣﴾ [نوح: ٣]، ﴿ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢﴾ [نوح: ١٠-١٢]، واتّبعوا قادتهم ورؤساءهم أصحاب الأموال والأولاد لمّا قالوا لهم: ﴿ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ٢٣﴾ [نوح: ٢٣]، دعاهم نوحٌ لعبادة الله وحده،

---

(١) رواه مسلم. «العِصَابَةُ» الجماعة، و«قِحْفها» (بكسر القاف): هو مُقَعَّرُ قِشْرِهَا، شَبَّهها بِقِحْفِ الرأس وهو الذي فوق الدِّماغ، و«الرِّسْلُ» (بكسر الراء وإسكان السين): هو اللَّبَن، و«اللِّقْحَةُ» (بكسر اللام وفتحها لغتان مشهورتان، والكسر أشهر): هي القريبة العهد بالولادة، و«الْفِئَامُ» (بكسر الفاء): هي الجماعة الكثيرة، «لَتَكْفِي الْفَخِذَ مِنَ النَّاسِ»، قال أهل اللغة: الفخذ الجماعة من الأقارب، وهُمْ دون البَطْنِ، وَالبَطْنُ دون القبيلة.

واتّباعه فيما جاء به من عند الله فعصوه، ودعاهم رؤساؤهم لعبادة غير الله، وطاعتِهم ومخالفة أمر الله فاتّبعوهم، فما زادوهم إلا ضلالا، وكانت النتيجة أن أهلكهم الله جميعًا، قال تعالى: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [نوح: ٢٥]، ونجّى الله نوحًا ومن أطاعه واستجاب لدعوته.

وهلكت عادٌ لـمّا عصوا رسول ربهم، واتّبعوا أمر كلِّ جبّارٍ عنيد، قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾ [هود: ٥٩-٦٠]، [تركوا اتّباع رسولهم الرشيد، واتّبعوا أمر كلِّ جبّارٍ عنيدٍ؛ فلهذا أُتبعوا في هذه الدنيا لعنةً من الله ومن عِباده المؤمنين كلَّما ذُكروا، ويُنادى عليهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد: ﴿ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾][(١)].

كذلك هلك قوم فرعون لـمّا عصوا رسول ربهم، واتّبعوا أمر ملِكهم، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [هود: ٩٦-٩٩].

هذه عاقبة من عصى الله ورسله، ورفض شرعه، واتّبع غيره: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [هود: ١٠٠-١٠٣].

فاعتبروا يا أولي الأبصار.

---

(١) تفسير ابن كثير.

وقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أن القادة والرؤساء الذين كانوا يُطاعون في الدنيا في معصية الله ومخالفة دينه، يتبرؤون من أتباعهم يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: ١٦٥-١٦٦]، وحينها يندم الأتباع أشد الندم على طاعتهم إياهم، واتّباعهم تشريعاتهم في الدنيا، ومعصية الله وترك شريعته، ويتمنَّون رجعة إلى الدنيا؛ ليتبرؤوا من رؤسائهم وعلمائهم وأكابرهم، كما تبرأ الرؤساء والعلماء منهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٧].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الشعراء: ٩٦-٩٩].

قولهم: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، [أي نجعل أمركم مطاعًا كما يُطاع أمر ربِّ العالمين، وعبَدناكم مع رب العالمين](١).

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨]، [أي اتّبعنا السادة وهم الأمراء والكبراء من المشيخة، وخالفنا الرسل، واعتقدنا أن عندهم شيئًا، وأنهم على شيءٍ، فإذا هم ليسوا على شيء](٢).

فاعتبروا أيها الناس.

---

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) تفسير ابن كثير.

قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ۝٦١ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٦٢﴾ [الزخرف: ٦١-٦٢]، يقول عَزَّوَجَلَّ: اتّبعوا شريعتي، واعملوا بما أمرتكم به، وانتهوا عما نهيتكم عنه، فاتّباعكم إياي أيها الناس في أمري ونهيي صراطٌ مستقيمٌ، واحذروا أن يصرِفكم الشيطان عن طاعتي، فتتركوا شريعتي، وتعدِلوا إلى غيرها، وتنحرفوا عن الصراط المستقيم فتضلّوا، إن الشيطان لكم عدوٌّ لا يريد لكم الخير والصلاح، بل يدعوكم إلى ما فيه هلاككم، فقد أظهر لكم العداوة، وتوعَّد بإغوائكم؛ لتكونوا معه حطبًا لجهنم(١).

فمن أراد خير الدنيا والآخرة فعليه بالرجوع إلى الله، والإنابة إليه، والاستسلام له وحده، والرضا به ربًّا وحكَمًا ووليًّا، فهو الطريق الوحيد الذي يشهد العقل، والفطرة، والكتاب والسنة، والواقع بأنه الحق والسعادة والربح والفوز المبين، وما سواه ضلالٌ وتعاسةٌ وخسارةٌ وشقاءٌ، قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٥٥﴾ [الزمر: ٥٤-٥٥]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝١٨﴾ [الزمر: ١٧-١٨].

أسأل الله أن يهدينا سواء السبيل، ويوفقنا لطاعته وطاعة رسوله، ويجعلنا أهلًا لإقامة دينه وإعلاء كلمته.

سبحانك اللهم وبحمدك، نشهد أن لا إله إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك.

---

(١) انظر تفسير الطبري.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

بَرَاءَةُ ٱلإِسْلَامِ

من العلمانية والديمقراطية

شرَع الله عز وجل بعلمه وعدله وحكمته لعباده شريعة أغنتهم عن الرجوع إلى غيرها لتنظيم حياتهم، وقد فرض الله على عبيده اتبّاع شريعته، وتحكيمها في حياتهم كلِّها، وحرّم عليهم الخروج عنها، أو تشريع مايخالفها، أو الرجوع إلى غيرها في كبير أو صغير من شئون حياتهم، فآمن بها فريق من عباده وارتضوها لأنفسهم دينًا ومنهجًا ونظامًا لحياتهم كلِّها، واتخذوها مصدرًا لأحكامهم وقوانينهم، ولم يبغوا غيرها بديلاً، فعاشوا في ظلها أحرارًا أعزّاء شرفاء حياةً كريمةً شهد بها العدو قبل الصديق، وكفر بها فريق من عباده، ورفضوها ولم يرضوا بها منهجًا لحياتهم، واتخذوا من زُبالة أذهان البشر وأفكارهم وأهوائهم بديلاً عنها، فعاشوا عبيدًا يعبُد بعضُهم بعضًا أذلاء تُعساء معيشة ظنكًا، لا يعلمون إلا ظاهرًا من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون.

مكتبة أنوار التوحيد